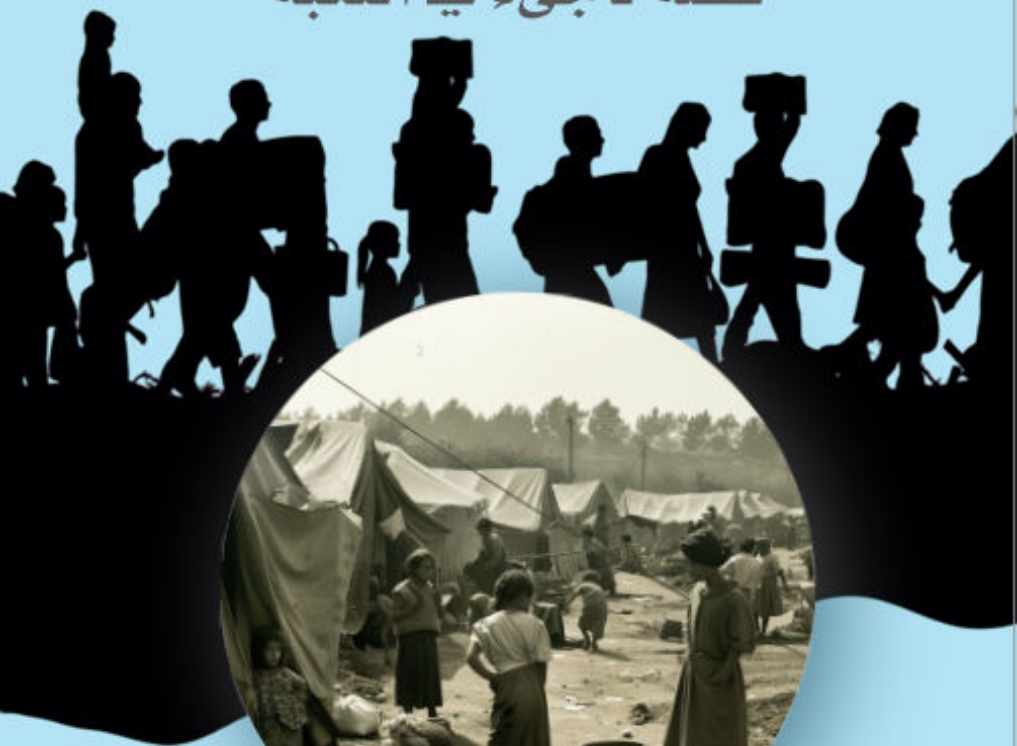


المهاجر..

قصة لاجيء في النكبة



ورأى أبو عجمية

المهاجر ..

قصة لاجئ في النكبة

تأليف

ولاصف أبوعجمية

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(2025/2/1036)

بيانات الفهرسة الأولية للكتاب:	
عنوان الكتاب	المهاجر: قصة لاجيء في النكبة
تأليف	ابوعجمية، واصف احمد محمود
بيانات النشر	عمان: واصف احمد محمود ابوعجمية، 2025
الوصف المادي	156 صفحة
رقم التصنيف	813.90564
الواصفات	/الروايات العربية//الادب العربي// العصر الحديث// فلسطين/
الطبعة	الطبعة الأولى

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى
مصنفه ولا يعبر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية
أو أي جهة حكومية أخرى.

ISBN 978-9923-9485-2-1 (ردمك)

* تصميم الكتاب والغلاف: نبيل جادالله *

المهاجر

قصة لاجئ في النكبة



جميع أحداث هذه القصة حقيقية
وكذلك أسماء البلدات
والمناطق والأشخاص ووصف المواقع والتواريخ
إلا ما اقتضاه السياق من سيناريو وحوار
جعلناه في أضيق نطاق
وهدفها معرفي وتوثيقي في قالب روائي..

واصف أبو عجمية



الإهداء

إلى من هاجر جسده...
ولم يهاجر قلبه..

رصاص فوق الراس

يصحوا أحمد على صياح الديك فيهب من فراشه مسرعا، فالיום هو يوم الجمعة، وهو يوم العطلة، ولن يذهب إلى القرية المجاورة حيث المدرسة، وكان أحمد قد اشترط على أخيه الأكبر داهود¹ أن يكون الرعي يوم الجمعة له، لا رغبة في الرعي، وإنما فيما وراءه من صيد العصافير، يأخذ الأبقار والأغنام بصحبة أقرانه من صبية القرية، ويسرح بها إلى المراعي.

وكانت نقطة البداية دائما من البد²

وكان أكثر اتجاه الصبية إلى الشرق حيث الخصوبة والوفرة في تلك البرية، وبينما تتنعم الأبقار والأغنام بكرم الطبيعة، كان الأولاد يتوجهون لصيد العصافير من أعشاشها أو من الآبار، حيث ينزل أحدهم في البئر، ثم يغطي الباقون باب البئر بأغصان الشجر، فتهرب العصافير لتجد باب البئر مغلقا

1 داهود= داود، هكذا كانوا يلفظونها في بعض القرى الفلسطينية

2 البد: مغارة واسعة مستطيلة يجعلونها حظيرة للدواب والحلال ويغلقون عليها ببوابة حديدية

فيصطادهن، وعندما يجمعون من الصيد ما يكفي يقومون بطبخه، ويكون كل واحد منهم قد جلب قدر استطاعته من بيته، من البصل والملح والسمن والبندورة الطازجة أو المجففة، وكانوا يجدون في ذلك متعة لا تضاهيها متعة.

وأما إذا لم يكن موسم صيد فيكون طعامهم فته الحليب، فكانوا يجمعون الخبز، ويفتونه في (حوض الحليب) ثم يأتي من هو أكبر منهم سنا ليحلب على الفته، ويتركونها ذاهبين لسقي الدواب، حتى إذا صدر الرعاء عادوا فكانت الفته جاهزة للالتهام، وربما أضافوا فوقها السكر لو توفر.

وأما إذا لم يكن موسم صيد ولا حلب يكون طعامهم البصل، أو القطين³ أو الجميد⁴، وكل كانوا يجدونه لذيذاً على حواف البئر أحواض منحوتة من الصخر تسمى النُّقَر (جمع نقرة، أو نقير) فكانوا يملؤونها ماء لشرب الدواب وكان منها حوض يسمونه حوض الحليب لا تسقي منه الدواب هو مستقر الفته.

وبعد هذا يلهون بالألعاب، مثل الطمّة⁵ أو الهولوه⁶ أو

3 القطين: التين المجفف

4 الجميد: خثارة اللبن وهي جافة صلبة

5 الطمة: الاستغماية، أو الغماية، أو: اختبئ وابحث

6 الهولوه: قفز الأطفال فوق ظهور بعضهم بعضاً في وضعية الركوع

الحابة⁷ أو الكورة⁸ أو الودد⁹، ويجمعون الأزهار والأعشاب، ثم يعودون من هذه المهمة الشاقة - الممتعة إلى قريتهم مغلس قد شبت نفوسهم وأرواحهم من البرية والجبال والغابات والسهول وهل تظن أن فرط نشاطهم كان يقف هنا؟ وإلا فما هي فائدة: الحوش الشامي؟



الحوش الشامي

كانت دار أحمد تتبع الحوش الشامي في شمالي القرية، وأمام الدار ساحة واسعة يقال لها الساحة الشامية، ولاتساع هذه الساحة فقد كانت ملتقى الصبية ومكان التجمع للألعاب، ما بين ألعاب نهائية، وأخرى ليلية.

بعد الغروب يتجمع أبناء الأحياء الأخرى في الحرجة (وهي ساحة المدرسة بوسط القرية) وبعد أن يكتمل تجمعهم يتحركون باتجاه الحوش الشامي هاتفين:

7 الحابة: قذف الأغصان الخشبية إلى أبعد مسافة ممكنة، وذلك بالنقر على طرفها بعصا خشبية أخرى حتى ترتفع في الهواء، ثم الضرب عليها بقوة وهي في الهواء بذات العصا لتندفع بعيدا، ويكون التباري في أيهم أبعد مقذفا وأصعب منالا، وكنا نسميها حابو-جيبو

8 الكورة: كرة خشبية يضربونها بالمضارب، تشبه البولو ولكن من غير خيول

9 غرز الودد في الطين

- «ع الحوش الشامي - يلا».

- «ع الحوش الشامي - يلا».

وعندما يصلون يخرج أبناء الحوش الشامي، ويبدأ اللعب.

ومن الألعاب الليلية، لعبة اسمها (قصين عظيم) يستخدمون فيها قطعة عظم من خاروف أو غيره، تبدأ اللعبة بإجراء القرعة فيمن يلقيها أولاً، فيلقيها بأقصى طاقته في وسط العشب فينطلق اللاعبون في التفتيش عنها، وعندما يجدها أحدهم يهجم عليه الباكون ليخلصوها منه، ويحاول هذا جاهداً أن لا يفرط فيها حتى يصل إلى المكان الذي ألقيت منه، ويكون هو الذي يلقيها.

أما الألعاب النهارية فهي بالإضافة إلى ألعاب البر كانت هناك ألعاب بالقلول والبكاك¹⁰، ثم ألعاب أكثر عنفاً مثل المباطحة¹¹.

إلى أن يأتي يوم يختلف عن باقي الأيام قليلاً.

يعود الصبية من الرعي فيلاحظون مجموعات من البشر رجالاً ونساءً وأطفالاً يتوافدون إلى القرية يحملون المتاع على

10 القلول، أو البكاك: هي البلى الزجاجية

11 المباطحة: المصارعة

الدواب أو فوق رؤوسهم.

- من هؤلاء يا خالتي؟ يسأل أحمد

- لاجئون من قريتي جليا والمغار، هاربون من العصابات الصهيونية التي احتلت أرضهم، سيقمون عندنا في بيوتنا، فهم أهلنا، وستقاسم معهم البيت والطعام والشراب.

- لقد سرق اليهود بيوتهم؟

- لا تقلق، لن يصل اليهود إلى هنا، فالدول العربية قادمه بجيوشها، وستطرد المحتلين قريبا إن شاء الله

يقف أحمد برهة يتأمل وجوه الوافدين، لقد بدا عليهم القلق والاضطراب أكثر مما بدا عليهما التعب، وكأنهم يقولون: هل من عودة؟

توزع الوافدون على بيوتات القرية، وقد نزل جمع منهم ضيوفا في بيته الكبير - بيت جده - وتقاسموا بالفعل مع أهل البيت طعامهم وشرابهم، وكلهم أمل أن لا يطول الأمر، وكان أحمد يرقب كل هذا والأسئلة تتقاذف إلى ذهنه، فيسأل والده تارة، ويسأل خالاته أو أعمامه تارة أخرى.

وفيما كان كثيرون قد انشغلوا باستقبال الوافدين الجدد
كان آخرون يستعدون لشهر رمضان.
فرمضان على الأبواب.

ثم جاءهم الخبر الصاعق في الأول من رمضان الموافق
1948/7/7 عندما احتل اليهود بلدة تل للصافي المجاورة،
والقرية جدا من قريه مغلس.

- تل الصافي؟

تلك التي فيها مدرستي؟ (صاح أحمد)

نحن نروحها مشيا على الأقدام كل يوم.

انتشر الخبر سريعا كالنار في الهشيم، وانقلبت القرية
كلها إلى هرج ومرج.

يتنادى رجال القرية إلى الاجتماع عاجلا عند شجرة
السدر الأكبر في القرية والمسماة (سدره الجُرْن)، والتي يتسع
المكان تحت ظلها لاجتماع أكثر من أربعين شخصا.

- ما العمل؟ اليهود باتوا على أبواب مغلس، وقد
يدخلونها اليوم أو غدا، فماذا نحن فاعلون؟

- قد سمعتم ما حل بدير ياسين، لقد قتلوا الرجال والنساء والأطفال، وبقروا بطون الحوامل.

وقد كانت أصداء مذبحه دير ياسين قد أفرغت الناس، تلك التي وقعت في نيسان/ إبريل من عام النكبة، ودفعت الأهالي إلى الهجرة واللجوء.

- لماذا اختار اليهود تل الصافي؟

- الأمر واضح، تل الصافي مرتفعة عن باقي القرى التي حولها

- صحيح، إنك تستطيع من وقوفك في (مقام الخضر) أن تشرف على أربعة عشرة قرية، هي مغلس، اذنية، برقوسيا، زيتا، ذكرين، بعلين، رعنا، عجور، جليا، دير الذبان، تل الترمس، القسطينة، صميل، الخيمة.

- لا يمكننا المكوث هنا أبدا، لسنا مسلحين ولا مؤهلين لمناهضة العصابات الصهيونية.

- إلى أين؟

- إلى أم المغير في خربة عمورية، نأخذ النساء والأطفال،

نستعصم بالجبل انتظارا لفرج الله.

- حي على الخروج.

تحولت القرية فجأة إلى خليه نحل للتحرك الفوري إلى
أم المُنْغَر¹²

- أحضر الدواب ...

- ارفعوا الأمتعة ...

- احزموا الفرش ...

- ادخلي المطبخ يا بنيتي وأحضري كذا وكذا..

- اذهب إلى عمك فلان واستعجله.

- تحرك، أخرج الأبقار من البدّ.

- أين الأوراق الثبوتية.

- ... إلى آخره.

يرقب أحمد هذه المشاهد في ذهول، إلى أن صاح به
والده المسن (أبو داهود):

المغمر: جمع مغارة، أو غار، وأم المغر جبل في خربة عمورية بين عجور والبريج

- هيا يا أحمد، تحرك.

ولم يكن النهار قد انتصف حتى سارت قافلة بشرية من مغلس نحو خربة عمورية، وإلى جبل أم المغر تحديدا، وفيما غادر اللاجئون الذين وفدوا من جليا والمغار إلى جهات لا يعلمها، تجمع الناس من فروع القرية عند النقطة الشمالية ليستحيل سيرهم معا خطا واحدا من البشر والركائب كأنه مسار من النمل.

كانت الخربة قرية جدا من القرية.

تختار كل أسرة أو (عائلة ممتدة) غارا من هذه المغاور حسب سعتها .

وعلى عجل: يرتب الناس أماكنهم في ارتباك واضح.

كان أحمد وأخوه يتابعان توجيهات والدهم في تشابك مع تعليمات أعمامهم وأخوالهم الذين يبرزون من كل حذب وصبوب.

وبعد أن يستقر الوضع على صورته الأولية، يتحلق الناس حول النار التي أضرمت بين المغاور، ويتحدث وجهاء القرية حول سبل التعامل مع هذه الأزمة.

- أين فلان؟
- لقد خرج مع الشباب المقاتلين إلى تل الصافي.
- ليس هو فقط، لقد ذهب كل من كان قادرا على حمل السلاح.
- كم عددهم؟
- لا أعلم، ربما كانوا بضعة عشر شابا، بعضهم يملك بارودة¹³ وبعضهم يتشارك مع الآخرين، وهناك غيرهم يحاولون شراء البواريد والانضمام إلى المجاهدين للدفاع عن تل الصافي أو الرباط في مجلس لصد الهجوم.
- وماذا تنفع البارودة بعد أن تنفذ منها الذخيرة، هل تصلح لغير وخز الفئران؟
- هنا المشكلة..
- كانت البنادق مرتفعة الثمن جدا، وقد يضطر الرجل إلى بيع بقرة بأكملها لشراء بندقية، يوم كانت البقرة ثروة عائلة بأكملها، وفي حين كانت العصابات الصهيونية مسلحة

تسليحا ممتازا، ومدربة تدريبا نظاميا على أعين الضباط الانكليز وعلى سواعدهم، كانت حيازة السلاح -في المقابل- محظورة على العرب، وكان الإنكليز يعاقبون كل من يخالف الحظر، وقد نفذوا هذه السياسة بقسوة بالغة، فقد كانوا يحكمون بالإعدام على كل من يضبطونه متلبسا بحيازة أي قطعة سلاح، أو أي ذخائر، بل ثبت أنهم أعدموا بعضا من عشروا بحوزتهم على الفشك.¹⁴

وهناك حادثه مشهورة يتناولها أهل القرية في هذا الباب.

المحاكمة

فقد جاء ذات ليلة إلى القرية حرامية¹⁵ يرتدون لباس البوليس (الشرطة) فسلبوا دار حسن عثمان كما دخلوا بيت أحمد يونس الذي كان متزوجا حديثا من ابنة عمه فسلبوا العروس¹⁶ مصاغها وحليها وتبين أنهم من قرية عجور، عندها اجتمع رجال القرية من جميع العشائر واتفقوا على حراسة القرية، فأقاموا نقاطا للحراسة على عقد معينة من الحواف، ورتبوا عليها نوبات للحراسة، وكانت نوبة خاله: أحمد حسن شرق القرية لمراقبة الطريق القادمة من جهة عجور، وأثناء نوبته ليلا سمع جلبة ووقع أقدام أشخاص قادمين من جهة عجور، فسحب أقسام البندقية وصاح:

- قف... من هناك.

- نحن بوليس.

15 الحرامية: اللصوص

16 العروس في العربية للرجل والمرأة، ولكنها تمايزت إلى عريس للشباب، وعروس للفتاة، والبعض يقول: المعرس

رمى أحمد حسن البندقية بين شجيرات الصبر حيث
كان كامنا.

- أخرج من مكمئك، وسلم السلاح.

يخرج أحمد حسن.

- أين البندقية؟

- لم يكن معي بندقية.

- سمعناك سحبت الأقسام.

- يا شباب: ابحثوا عنها..

فتش العسكر بين الصبر مستعينين باللوكسات¹⁷ اليدوية
فعثروا على البندقية.

- امش أماننا، سنفتش البيت أيضاً.

وعلى الطرف الآخر كان يحرس يوسف أحمد، فعلم
بالخبر، فظنهم اللصوص، فحمل بندقيته وأسرع باتجاه دار
حسن أحمد، وإذ هم بوليس حقيقي، عندها قذف البندقية
على سطح مخزن تبن.

أخذ الإنكليز أحمد حسن إلى مركز بيت جبريل وأحالوه إلى المحكمة المركزية في القدس لخطورة الموضوع عندهم، وانقسم الناس في أمرهم يتكهنون، من قائل بالإعدام، ومن قائل بالسجن المؤبد، فقامت العائلة بتوكيل المحامي أنور نسيبة¹⁸ الذي نشط للمرافعة، ولكن الأمر كان صعبا، وطالت المحاكمة، وأخيرا نجح المحامي النبيه في إقناع القضاة يوم قال للمحكمة:

- هذه البندقية لأهالي مغلس كلهم -وأشار إلى حادثة اللصوص والمناوشات بين مغلس وبعض عائلات عجور- وقال: إن هذا الشخص كان يحرس نوبة معينة، ولو تقدم البوليس ساعة لوجدوا غيره، أو تأخروا ساعة لوجدوا غيره، فإن كنتم مصرين فاحكموا على أهل القرية جميعهم.

فاقتنعت المحكمة وأصدرت حكمها بالبراءة.

وفي يوم النطق بالحكم تجمهر الناس أمام دار الحاج حسن بانتظار حضور محمد، ولم يكونوا قد عرفوا نتيجة الحكم، كانت أنظار الجميع متجهه صوب الشمال، وكأنهم يربون قدوم الهادي المنتظر، وفجأة ظهر محمد وهو يلوح

بالخطة¹⁹ ويصيح بأعلى صوته:

براءة... براءة... براءة.

وكان خلفه الطليق مع جمهرة من الصحب، وعندها اندفع شباب العائلة يركضون لملاقاتهم وساروا أمامهم يرقصون ويغنون حتى إذا وصلوا إلى داره خرجت أمه واحتضنته وقبلته، أما شباب القرية فقد عقدوا حلقات الدبكة يغنون أغان ذات مغزى فيها تعريض برجل معين كان قد غلب على ظنهم أنه الواشي.

وهذه حادثة تدلل فقط، وإلا: فإن المستعمر كان يديم مداهمة القرى والبحث عن الثوار منذ أيام ثورة البراق وثور القسم والإضراب الكبير والعصيان الذي قام على إثر قرار التقسيم في العام 1947.

داهم الإنكليز هذه القرية الصغيرة أكثر من مرة، وللأسف يكون قوام الفرقة -على الدوام- من المتطوعون العرب (خونة) وعليهم مسئول إنكليزي.

لقد تعاطف الناس مع ثوره 1936 ومع الإضراب الشامل، بل أن الناس من شدة كراهِيتهم للإنكليز تعاطفوا مع ألمانيا

الحطة: غطاء الرأس، مثل الغترة والشماع

بعد اشتعال الحرب الثانية، وكانوا يهتفون لألمانيا، ويغنون لها
في الأعراس والدبكات، وأحياناً بدون مناسبة، قائلين:

هتلر يا هتلر أوعك تخاف

رومل في الجبهة مشكك سلاح

واشفق يا هتلر على الستات

ويقصدون بالستات: فرنسا الرخوة التي سقطت بسهولة
في يد الألمان.

كان الفلاحون يهبطون من أم المغرب يومياً إلى القرية رجالاً
ونساء لجنني المحاصيل أو تفقد أحوال الدار، وعُلف الدواب،
وكانت النساء تجهز الطابون والعجين وتغسل الثياب وتقوم
على باقي أعمال البيت، ولكن لم يدم الأمر طويلاً.

حتى كان صباح اليوم العاشر من رمضان.

احتلال مغلس

كان أحمد مع والده في بستان لهم يسمى (الجسر)
قريبا من الدار وكان مزروعا زيتونا، وبين جذوع الزيتون المتباعدة
كانوا يزرعون المقاثي، وبينما كان أحمد وأبوه منهمكان في
جمع الناضج منها، وكان الوقت يقارب العاشرة صباحا، سمعا
فجأة صوتا يصرخ يهرول مسرعا ويقول:

- اليهود وصلوا الجورة.

اليهود وصلوا الجورة

كان الهاتف محمدا ابن عمه خليل، والذي وجه كلامه
للأب:

- يا عم، أنت هنا؟ واليهود قادمون من جهة الجورة.

والجورة قرية جدا... وهي شمال القرية على طريق (قزازة)،
فأسرع أبو داود إلى البيت وتناول كيسا من الطحين فيه ما
يقارب الثلث فحمله وخرجوا مسرعين من القرية.

وما حتموا أن خرجوا من القرية - وكانوا قد تواروا بين
الشعاب - حتى سمعوا صوت العيارات النارية، وكانوا من قبل
يظنون أن قدوم جنود اليهود سيكون من الغرب حيث مستعمرة
كفار منحيم أو من الجنوب من مكنهم في تل الصافي.

سارع الناس بالهرب، لكن سيارات العصابات الصهيونية
كانت قد دخلت القرية بالفعل، وباشرت في إطلاق الرصاص
عليهم.

تدافع الفلاحون للخروج شمالا في انفلات محموم
هاربين من القتل.

واعتلى بعض أفراد العصابات أسطح المنازل وبخاصة
سطح المدرسة، وهو الأقرب إليهم، وشرعوا بإطلاق الرصاص
فوق رؤوس الفارين.

توقفت الدوريات اليهودية على مشارف القرية فيما أكمل
الفارون طريقهم نحو أم المغر.

وقف الناس على الجبل ينظرون إلى القرية واجمين
مذهولين، كأن على رؤوسهم الطير.
لقد وقع المحذور..

لقد سقطت القرية وضاع كل شيء، وضاع الأمل.

في لحظه واحدة انقلبت حياه هذا الفتى من عيشة هائلة
في قرية وادعة، ثمارها طيبة، ومأوها زلال، وأجوائها خلابة،
ومرابعها ساحرة، إلى مستقبل مظلم مجهول.

ما الذي يخبئه القدر؟

وهل سنبقى في المغارة؟

أم سنرحل؟ وكيف؟ وإلى أين؟

وكم نطبق أن نحمل معنا من الزاد والمتاع؟

لم تكن الكهوف تكفي جميع سكان القرية، كما كانت
سكنى المغاور غير صحية لما بها من الرطوبة، فلا منافذ ولا
تهوية، فعمد الناس إلى أشجار الخروب، وهي أشجار معمرة
ملتفة كثيفة وقاموا بتسييجها بأعمدة من أغصان الشجرة
ذاتها حتى استحالت أكواخا صالحة للسكنى، وكانت
هذه الخلوات ضرورية لقضاء الحاجات، ولتغيير الملابس،
والاستحمام، وخاصة للنساء والفتيات.

عاد أحمد إلى والده الذي كلفه أن يساعد ببعض المهام:
من ترتيب الفرش للنوم ورفع بقايا الطعام ثم ملء ماء للشرب

وتجهيز السراج الوحيد المتبقي لديهم.

- أتريد أمرا آخر يا أبي؟

- لا يا أحمد، اذهب.

خرج الصبي من الغار في نهاية يوم حار من صيف عام 1948 (والذي سيصير اسمه لاحقا: عام النكبة) يتجول بين المغارات المتناثرة في الجبل يرقب هذا وهذا من أبناء عمومته وأخواله وجيرانه فيلاحظ الناس في انشغالهم الممزوج بالقلق والحيرة مع الغضب.

ثم يمم وجهه شطر جُرف في ناحية الجبل يشرف على السهل الذي تقع فيه قريته.

لم تكن القرية بعيدة، ربما كانت المسافة لا تزيد عن اثنين من الكيلومترات، إنه يراها بوضوح .

نظر نحو الغرب أولا يرقب الشمس تهبط نحو مستقر لها.

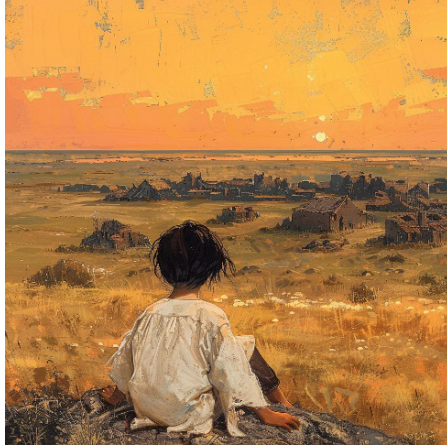
ليست كل المغارب ك بعضها، وشتان بين مغرب ومغرب، فهل غياب الشمس على كسير قلب كغيابها على محبور ينام

على آمال هائلة؟

لم يطل تأمله لغياب الشمس فقد ولى وجهه شطر
الجنوب الغربي حيث بدت معالم قرينه تغيب مع الظلام

جلس على الأرض أحمد...

وأجهش في البكاء.



أمن توقف أجداد على طلل

برسم بيت عفا من سالف الأجل

وقفت دهرا بآفاق مغيبة

وقف الكسير على شط بلا أمل

ثار القريض بأبيات مضمخة

دما ودما سرى من رائق المقل

يروى ثراه فيحيي فيه أحرفه

والأرض مترعها بالوابل الهطل

لقد كان يحب قريته ويحب أبنائها، وسيبقى حبها يعتمل في قلبه حتى آخر أنفاسه، وسيخرج أثر هذا الشغف من مخبئه في كل مناسبة: في حديثه، ومجالسه، وأشعاره، وقد رزقه الله ذاكرة حديدية أهّلته أن يحفظ أسماء أبناء قريته واحدا عقب الآخر، وأن يحفظ بيوتات بلدته وأزقتها وحواريها وساحاتها، وسيكون هو الذي يرسم شجرة العائلة، ويرسم خارطة بيوت القرية في مهجره بعمان بعد هذه الواقعة بعقود، وسينظم فيها الأشعار ويصنف فيها كتاباً.

ربما كان أحمد قد أتم اثني عشر عاماً، هو لا يعرف بالضبط تاريخ ميلاده، إلا أنهم -بعد ولادته بأعوام- سجلوا التاريخ بشهادته الولادة في 1936/1/1 كعادتهم عندما لا يفلحون في تحديد التاريخ، وقالوا أنه ولد على يد الداية²⁰ حليلة إبراهيم أبو بكر، وانتظر طويلاً حتى أتى مطهر الأولاد

من خارج القرية التي لم يكن بها مطهر ماهر.
يفيق أحمد من سكرته على صوت أخيه داوود يدعوه،
وكانت الشمس قد غربت، وغيت بغروبها آفاق قريته.

لاحظ القرويون في الأيام التالية للجلاء أن الدوريات
اليهودية عادت إلى معسكراتها ولم تستقر فوق أرض القرية ولم
تجلب مستوطنين إليها.

كانت الدوريات تتردد إلى القرية مرتين كل يوم في أوقات
محددة (في الساعة 10.00 صباحة والساعة 4.00 عصرا)
حتى صارت هذه المواقيت محفوظة لديهم، وكانوا اليهود
يطلقون النار في الهواء تأكيداً على ملكيتهم للأرض، فيسمع
أزيها القرويون، ولأن المغارات لا تتوفر فيها الحد الأدنى من
الماء والزاد فقد تجرأ بعض رجال القرية وشبابها على التسلل
إلى البيوت في أوقات غياب الدوريات اليهودية، فكانوا يعودون
إلى بيوتهم وحوالكيرهم، يجمعون ما تبقى من مؤن، ويقطفون
الخضار والقش، ويملؤون الماء، ثم يعودون إلى أم المغر قبل
غروب الشمس.

وكان أحمد ينزل معهم..

وفي واحدة من المرات التي نزل عن الجبل وتوجه للقرية مع والده، اتجه أبوه إلى الحاكرة المسماة بالشامية لجني محصول التين، فيما زعم أحمد أنه متوجه إلى الحاكرة القبلية، ولم يكن يقصد إلا المدرسة، عله يجد فيها بعض الكتب، والمدرسة تقع في وسط البلدة.

ولما وصل المدرسة وجد أبوابها مفتوحة على مصراعيها، وخزانة الكتب مقلعة الجوانب، والكتب مبعثرة على الأرض، وفي أثناء بحثه عن بعض الكتب سمع صوت إطلاق رصاص، فخرج من المدرسة مسرعا مصوبا نظره جهة إطلاق الرصاص، فرأى مجموعة من اليهود راكبين الخيول قادمين من الغرب -من مستعمرة كفار مناحم على الأرجح-، وقد كانوا قد وصلوا أرض الشيخ داوود غرب القرية يتقدمهم شخص يرتدي قميصا بنصف كم، وييده مسدس يطلق الرصاص.

هرب أحمد مسرعا مختفيا في أزقه القرية الخالية فالتقى في طريقه بعلي ابن عمه خليل ثم بمحمد ابن عمه سعيد، وأسرعوا بالفرار من القرية قاصدين الحاكرة الشامية حيث ترك أباه، فلم يجده.

- أبي ليس هنا..

- أنا لم أره في طريقي.
 - ولا أنا.
 - ربما عاد إلى المغارة.
 - اليهود يتقدمون نحونا.
 - أين المفر؟
 - أرايتم لو أوينا إلى مغارة القعدة؟
 - إلى مغارة القعدة.
- اجتاز الصبية حواجز الصبار وأسرعوا إلى مغاره (القعدة) وقبعوا فيها، ولكنه كان اختيارا غير موفق، إذ أن القعدة مرتفعة مكشوفة، خالية من الشجر، فهي مهملة منذ سبع سنوات لأن أصحابها عائلة أبو حديد كانوا قد جلوا إثر قتلهم شابا من القرية.
- وصل اليهود قريبا وبدأ إطلاق النار وكان الصبية يشعرون بالرصاص يسقط على ظهر المغارة الصخري.
- أصابهم رعب وهلع، وقبعوا هنالك صامتين، حتى إن

الواحد منهم ليسمع أنفاس الآخر في هذا الصمت المطبق،
كان علي أكبرهم سنا، يليه محمد وكان أحمد أصغرهم، طفق
أحدهم يأتي بحركات مضحكة، فقال له الآخر:

- هذا والله من الخوف يا ابن عم

وكان الأمر كذلك فقد امتنعت وجوههم، كأنما غاض
الدم إلى القعر.

برهة، ثم توقف إطلاق النار فقال علي:

- لم يتوقف، وأنهم لقادمون.

- اخرجوا..

خرجوا من المغارة زحفا فوق الأشواك، حتى صاروا في
وسط نبات الذرة ومنه إلى الوادي فنجوا جميعا، واستقبلهم
الناس بلهفة:

- أنتم هنا؟ وبخير؟

- وصلتنا الأخبار أنكم صرتم في الأسرى.

- ها نحن هنا، أمضينا وقتا في مغارة القعدة حتى
ذهبوا.

- الحمد لله.
- ولكن أين أبي؟ (يسأل أحمد)، أما عاد من القرية؟
- لا، لم يعد (يرد داوود).
- يا إلهي، هل من الممكن أنه قتل أو أسر؟
- لكن لم يلبثا إلا قليلا حتى أقبل الكهل حاملا سلة فيها
تين وبندورة وفقوس.
- ومن الحوادث التي أثارت الأسى في نفسه، واختلط
فيها الرعب مع الشجن حادثة وقعت يوم فاجأهم اليهود بقدم
مباغت، وبدأوا يطلقون النار من فوق ظهر المدرسة كعادتهم،
كان أحمد وقتها في البيت ومعه -ويا للغربة- أخته الصغيرة
فاطمة، ولا يتذكر ما سبب وجودها معه في القرية، وكان أباه
قد تركه قاصدا الأرض، فلما سمع صوت إطلاق الرصاص
هرب بكل قوته مع أخته التي كانت صغيرة لا تقوى على
الركض فحملها على كتفيه وقبض بقوة على يديها، وشرع
يركض باتجاه الشرق، والتقي في طريقه بخلق كثيرين هارين
ولكنه كان يحاذر (غياظة)، وهي أرض لهم على طريق
البريج عيبها أنها أرض سهلية مكشوفة لا مخبأ فيها من

الرصاص الذي كان يئز فوق الرؤوس.

كان هلعاً يخلع القلوب..

نظر أحمد بجانبه، فشاهد عبد المهدي خضر يركض بشدة، وهو جار له تجاوز الـ 25 من عمره، ومعه أخته فكان أثناء الركض يلتفت خلفه ويحث أخته كي تسرع، وفي إحدى التفاتاته تعثر بحجر فوق أرضا وظنت أخته أنه قد أصيب فصارت تصرخ وتلول، ولكنه نهض من فوره، فأسرعت نحوه وتعلقت بعنقه وهي.

مرت الدقائق كأنها ساعات، إلى أن وصلوا إلى أرض منخفضة وتواروا عن أنظار اليهود وزال خطر الرصاص.

وكان مما جرح أفئدة القرويين أن موسم جنى محصول الذرة البيضاء يضيع عليهم، وكان موسما من أخصب المواسم، بل زعم بعضهم أنه لم يشهد له مثيلا، في حين أن السنة التي سبقته كانت محلا مجدبة، وقد كانوا -من قبل- يستأجرون أناسا من الجبل من قرى بيت أمّر، وحلحول، وصوريف، وبيت كامل، ونوبة، وفاراس، وغيرها من قرى الجبل، بشرط النصف، وكانوا يجمعون المحصول في سلال من البوص فسّل لصاحب الزرع وسّل للعامل.

وفي مساء ذلك اليوم، وحول حلقه النار في أم المغر أدرك
رجال القرية ووجهائها أن أمل العودة إلى القرية يتلاشى.

- لقد غدا الذهاب إلى القرية خطرا يا رجال.

- بل إن مكثنا في الخربة لم يعد آمنا كذلك، ولن يطول
بنا الأمر حتى نطلب الفرار.

- نعم، إنهم يشددون على القادمين لجني محصول
التين والخضار.

- لقد قتلوا مصطفى أحمد، وعبد الرحمن اعطير.

- وماذا بشأن عبد القادر خالد وولديه محمد وأحمد.

- أخذوهم أسرى.

- ليس هؤلاء فقط، لقد أسروا أيوب إسماعيل وحسن
خليل أيضاً.

- إنهم يتعمدون التهيب، لقد قتلوا رجلا من اذنبه

اسمه عبد الفتاح ملحم بطريقة بشعة، فقد ضربوه بالبلطة
على رأسه.

- صحيح، رحمه الله، كان مصدر إزعاج لهم.

يسمع أحمد الكلمة الأخيرة عن عبد الرحمن ملحم،
ويعلم أنها حق، لقد شاهد بأم عينيه قحف الرأس المقطوع
ملقى بين الأعشاب، وقد طافت به الدباير.

- لا بد من نقل المؤن من القرية قبل قدوم العصابات
الصهيونية.

- إلى أين..؟

- إلى عجور، هل من خيار آخر؟

في النهاية صدق حدس من قال أن المكث لن
يطول، فقد وقعت معركة بين الفلسطينيين واليهود في منطقة
الجواريش، وهي بلدة من جهة الرملة، واستشهد فيها أعداد
من المجاهدين، كان أحمد يعرف منهم طه الحاج علي من
زكريا، وهذا معناه أن الجبل أصبح محاطا بالمناطق المحتلة
على شكل هلال، ولا بد من الخروج.

إلى عجور

اختارت كل مجموعة وجهة معينة ينقلون إليها المؤمن: من حبوب وقمح وذرة، واختار معظم أفراد عشيرته نقل المؤمن إلى عجور، فإن لهم بها رحماً ونسباً، وهكذا سار الأمر، ينقل الناس المؤمن في النهار من مغلس إلى عجور، ويبيتون ليلاً في الكهوف والمغاور حتى أتموا نقل المؤمن، ثم شرعوا في النزوح من الكهوف.

في الأول من ذي الحجة تحرك الناس في قافلة جديدة مشياً على الأقدام إلى عجور، وهذا معناه أن مدة إقامتهم في أم المغر كان ثلاثة أشهر قمرية بالضبط، منذ الأول من رمضان وحتى الأول ذي الحجة.

والسؤال الآن: هل سيطول المكث في عجور؟

الجواب: لا.

لم تكن إلا بضعة عشر يوماً، ولم يكن أحد ليتوقع ذلك،

بل إن والده توجه به إلى مدرسة عجور وسجله فيها ليكمل الصف السادس الابتدائي بعد أن انتهت العطلة الصيفية.

- إنها مدرسة كبيرة يا أبي.

- نعم..

- لها سور يحيط بها ولها مدخل أيضا.

- نعم.

- فيها ملعب لكرة القدم.

- نعم.

- كان في مدرسة تل الصافي أربع غرف فقط، أما

مدرسة عجور ففيها ما يزيد عن اثنتي عشرة غرفة.

- نعم.

أقام أحمد في المدرسة بضعة أيام فقط.

وقبل استلام الكتب المدرسية، حل عيد الأضحى، وفي اليوم الثالث من العيد يوقظه والده بشدة.

- قم، اهرب، اهرب، اليهود هجموا.

خرج اللاجئون، واللاجئون من قبلهم، واللاجئون من بعدهم دون أن يحملوا متاعا، فقط فرارا بأنفسهم، في تراحم هائل مرتبك كيوم الحشر.

يؤرخ الناس اقتحام عجور في 1948/10/23 الموافق نهاية عيد الأضحى.

إلى أين هذه المرة؟

يختار أبو داود مع أخيه خليل غارا في خربة (سبيع) التي تطل على بلدة (بيت نثيف) بينهما واد يقال له وادي (السمط) وفيه بئر تسمى بئر (الصفصاف)، وتكرر قصة نقل المؤن والأغراض من مغلس إلى عجور، وهذه المرة إلى مدينة الخليل - عاصمة القضاء -.

كان أحمد يرعى البقر مع ابن عمه عمر قرب وادي السمط، ويوما: جاء غلام من بيت نثيف ومعه جمل، فلما علم أنهم لاجئون وليسوا من أصل أهل المنطقة حاول أن يستقوي عليهم، فجعل يتحرش بهم مغايضا، فقال له أحمد: (والله اذا صرت واصلك لأمرغ رأسك في الشوك، وهو شوك مرار).

فلما رأى الغلام أنه لا يقدر عليهما تركهما وسحب بعيره، ولكنه عاد في اليوم التالي ومعه ذات البعير، وانتظرهما حتى إذا أتيا بئر الصفصاف ونشلا الماء من البئر إلى الحوض لسقي الدواب ظهر فجأة وكان كامنا بين أشجار التين.

ثم أورد بعيره الحوض فشفت ما في الحوض من ماء، فأمسك أحمد بتلابيه، وإذا بخمسة غلمان أكبر منهم سنا يهجمون عليهما، وكانوا من قبل رابضين بين الأشجار، فوقع الاشتباك، وإذا برجل يطلع عليهم صارخا ويده عصا، فهرب الغلمان ونجى الصبيان من علقه ساخنة، كان ذاك الرجل هو أبو حسن الذي كان راعيا عند أحد الفضلاء وكان يلتقي بهما أثناء رعي البقر.

يروى أحمد القصة لأبيه، فيرد أبوه:

- لا يوجد مراعى في هذه المنطقة، لقد غدت البهائم عبئا عليها، ولا بد من بيعها.

- لماذا؟

- مدينه الخليل وقراها جبلية، وكلها بساتين خاصة وحواكير مسورة، ولا تتوفر فيها المراعى للبهائم، لا فائدة من

إبقاء الدواب بحوزتنا.

- متى ستبيعها يا أبي؟

- سنذهب غدا إلى سوق المدينة ونبيعها كلها.

- والجمل؟

- نحتاجه لنقل المؤن من عجور إلى الخليل.

يذهب أبو داود وابنه البكر إلى الخليل ويبيعان الأبقار والأغنام، ومنها يذهبان إلى عجور لنقل المؤن على ظهر الجمل إلى الخليل.

في اليوم السادس على إقامته في خربة سبيع يخرج الوالد مع ابنه داود إلى عجور، فاليوم سيتم نقل آخر شحنة من المؤن إلى الخليل.

ينزل أحمد نحو بئر الصفصاف ثم يرجع حاملا الماء إلى ابنة عمه عائشة التي كانت تعجن لهم الخبز في صحن من الفخار ثم تخبزه لهم في صينية الشاي لقلة ما بين أيديها من قدور وأوان.

بعد الظهر: يعود أبو داود وابنه إلى خربة سبيع.

- لقد عدتم مبكرا اليوم يا أبي.
 - نعم.
 - ما هذا؟ أين الجمل يا أبي؟
 - لقد مات (يرد داوود نيابة عن أبيه).
 - كيف؟.
 - أصابه اليهود برصاصة في رأسه.
 - يا إلهي.
- يلاحظ الأب نظرات الأسف الحادة التي ارتسمت على وجه ابنه فيحاول أن يسرّي عنه، -والحق أنه أولى بالتسرية-
قائلاً:
- على أي حال يا أحمد كنا سنبيعه عاجلاً أم آجلاً،
 - فحالته كحال الأبقار والأغنام، فلا مراع هنا، كما أننا أكملنا
 - نقل المؤن والحمد لله.

احتلال بيت نتيف

أثناء مكثهم في مغارة سبيع هاجم اليهود قرية بيت نتيف بالمدفعية والرشاشات الثقيلة، ومن مكانهم في المغارة كانوا يرون الدخان يتصاعد بعد كل قذيفة.

كان في بيت نتيف مقاومون من الإخوان المسلمين قادمين من مصر والأردن وفلسطين ومعهم بعض الجنود المصريين وكانت المقاومة شديدة، ولذلك استخدمت العصابات اليهودية المدفعية الثقيلة، وهنا برز سؤال: لماذا لم تقاوم عجور مثل هذه المقاومة؟ وهي أكبر من بيت نتيف بأربعة أضعاف، رغم أن عجور كان فيها أيضا عدد لا بأس به من الجنود المصريين ومجاهدي الإخوان المسلمين.

الجواب: إنها الخيانة.

لقد كان القائد العام على فرقة الجيش المصري في عجور ضابط يوغسلافي، وكان هذا اليوغسلافي يقول: إذا جاء اليهود إلى عجور ستكون مقبرة لهم، وكان يث جنوده

إلى مداخل عجور ويقبض على كل متسلل بحجة حماية القرية من اليهود، وقبل احتلال عجور بفترة أسبوع تغيب هذا اليوغوسلافي، وسرت شائعات بأنه أصيب وذهب للعلاج ولكن تبين أنه يهودي جاسوس، فغدا الجنود والمتطوعون فجأة بلا قائد يوجههم، وهكذا تمت مdahمة القرية من المحاور التي أفسحها للعصابات.

في اليوم السابع على تواجدهم في مغارة دير سبيع يشاهد أحمد شاحنة عرف أنها قادمة من الخليل، أحضرها شخص من عائلة أبو شخيدم، كان أبوه وعمه قد اتفقا معه على إحضارها ليحملوا عليها أمتعتهم وأغراضهم ليتوجهوا بها إلى منطقة تسمى (دير عرّكة) قرب وادي عزيز غربي مدينه الخليل، وهناك نزلوا في مغارتين قرب بيوت أبو شخيدم.

يستيقظ أحمد وهو يشعر بشعور لم يعتد عليه.

ما هو؟

إنه البرد.....

في هذه المنطقة الجبلية يلمس أحمد البرد الشديد لأول مرة .

يصحو في الصباح مرتعشاً.

- الجو بارد.

- هذا طبيعي، فقد اقترب موسم الشتاء، (يرد والده).

- الأرض عليها طبقة بيضاء لامعة وباردة جداً، ما هذا؟

- إنه حليت...

- وما هو الحليت؟

- الجليد، طبقة ناعمة من الجليد، يبدأ ظهورها في
بواكير شهر تشرين الثاني، ولأن الشتاء لا زال في أوله فإن
الحليت يذوب بعد طلوع الشمس، ويتحسن الطقس قليلاً.

- لم نعهد هذا في القرية.

- قريتنا شفا غورية، من قرى السفح المطل على السهل
الساحلي، لا نعرف ثلجا ولا جليد ولا برداً.

- والآتي أشد يا أبي؟

- نعم، ولذلك سنرحل.

مخيم العوجا

لا يذكر أحمد -على وجه الدقة- كم طال مكثهم في دير عركة، لكنه يقدره بحوالي شهرين، والآن حان الوقت إلى لجوء آخر .

لم يستطيع بعض القرويين التكيف مع برد الخليل لذلك قرر أبو داود وغيره الارتحال إلى أريحا، حيث الدفء، فقد سمعوا عن خيام يجهزها الصليب الأحمر خصيصا للاجئين في مخيم العوجا قرب أريحا، والذي تبين لاحقا أنه مجرد بداية لمخيم لن يستكمل تجهيزاته، وفيما بقي بعض أعمامه في دير عركة، انطلق مع والده في شاحنة إلى أريحا.

كانت الطريق إلى القدس مقطوعة لذا سلكوا طريق وادي النار، مرت بهم الشاحنة على بيت لحم، ثم بيت ساحور، ثم دير ابن عبيد، وهناك بعد الدير صادفوا نزولا خطرا وطريقا ضيقة، وصار الكل ينطق بالشهادتين.

بعد عقود يروي لأولاده:

- كانت لحظات رأينا فيها الموت.

وأخيرا وصلت الشاحنة إلى أريحا وتبين أن المخيمات مملوءة عن آخرها، فلا يوجد متسع في مخيم عقبة جبر، ولا في مخيم عين السلطان، ولا في مخيم النويعة، وكانوا يرون الناس جالسين في العراء بالقرب من أمتعتهم.

يا لها من تغريبة مؤلمة....

تابعوا المسير إلى مخيم العوجا.

هناك لم يجدوا خياما.

أنزلوا متاعهم في العراء.

ثم رأوا خيمة كبيرة مكونة من أربع خيام مشتبكات مع بعضهن كانت تستعمل مسجدا، فنقلوا متاعهم إليها ونامت تلك الليلة أجساد قد هدها الكد والإرهاق، وفي الصباح فصلوا الخيام عن بعضها فسكن عمه خليل في خيمة وسكن عبد الرحمن رزق في خيمة وسكن صالح ومحمد خليل في خيمة بينما سكن أبو داوود وأحمد رزق في خيمة وجعلوا بينهما حاجزا، مجرد بطانية تفصل نصف الخيمة عن نصفها الآخر.

بعد مدة ارتحل عن المخيم جماعة من عرب السطرية وتركوا الخيام التي كانوا فيها فأخذ أبو داوود خيمة منهم فصارت مستقره.

كان الصليب الأحمر يشرف على المخيمات، إذ لم تكن وكالة إغاثة اللاجئين قد أسست بعد، وكان الصليب يوزع معونات شهريا مقدارها اثنين كيلوغرام من الطحين للفرد (شهريا)، وطبعا لم ذلك ليكفيهم خمسة أيام، فكان أبو داوود يذهب إلى الخليل يحضر الطحين من مخزونهم هناك.

أراد الوالد إيجاد مصدر للدخل فذهب إلى أريحا واشترى لكل من لولديه أحمد وداوود (طبلية) وهي صندوق من الخشب للباعة الجوالين له علاقة من الجلد يضعه البائع في رقبته، ثم يضع فيه بضاعته من الحلويات والתרيرات، ويسيح في شوارع المخيم ينادي عليها، ولكن الفقر كان مستشرياً، والعوز مال الجميع، فلم يكن أحد يتناول شيئاً يذكر، رغم أن ثمن السلعة لا يزيد عن قرش واحد، وفي بعض أحياء المخيم كان البدو يقتنون الكلاب، فكانت تهاجم الصبية فيهربون منها.

ثم تخلوا عن هذه التجارة غير المفيدة، وهناك اهتدى

ابن عمه أبو صلاح -وكان متزوجا- لفكرة بيع الترمس، فكان يذهب إلى أريحا فيشتري الترمس الناشف ويسلمه لزوجته أم صلاح، فكانت تنقعه ليلة كاملة ثم تغليه حتى ينضج، لكنها تظل بعد ذلك تبدل عنه الماء عنه خمس مرات أو أكثر لتذهب مرارته.

- لا زال فيه شيء من المرارة، (يقول أحمد).

- لقد بدلت الماء عنه اليوم خمس مرات.

- طرأت لي فكرة، لم لا نستفيد من نهر العوجا؟

- كيف؟.

- سأضع الترمس المسلوق في كيس من الخيش وألقيه في النهر حتى آخر النهار.

- فلنجرب..

ربط أحمد كيس الترمس بحبل، وربط الطرف الحبل الآخر بساق شجرة، وتركه نهارا كاملا، فلما أخرجه وذاق الترمس وجدته حلوا لذيق المذاق.

- لذيق، وكأنه الفستق.

- هذا سينجح.

صار بعدها يضع الترمس في صحن من النحاس ويبيع في شوارع المخيم، وبعد العصر يجلس يبيعه أمام المقهى الذي كان في خيمة كبيرة، وكان رواد المقهى يلعبون الشدة، وكان على المغلوب أن يدفع ثمن الشاي أو يشتري لهم الترمس، ولما رأى صاحب المقهى ذلك أراد منعه من الجلوس، لكنه أصر على مكانه، وسانده بعض رواد المقهى.

البحر الميت

قرر مجموعة من المتطوعين الاهتمام بالأطفال في مخيم العوجا، فنظموا لهم أنشطة دراسية وترفيهية، وكان منها رحلة إلى البحر الميت بتكلفة مقدارها خمسة قروش، كان الأولاد يسمعون عن البحر الميت ولم يكونوا يحسبونه بهذا القرب بل كان يخيل إليهم أنه في أوروبا أو الصين.

والآن المعضلة الكبرى: من أين نأتي بالقروش الخمسة؟ وهو مبلغ كبير يساوي أجرة عامل في يوم كامل.

المهم أن أحمد تدبر أمره، وحصل على المبلغ بعد عناء، فانطلق باص المتطوعين ومعهم الطلاب إلى البحر الميت، يتوقف الباص قبل البحر بقليل أمام بناية مهجورة بلا أسقف، فيها الكثير من المعلبات الفارغة، خلع الصبي قميصه، وربط قبته، وشرع يجمع المعلبات كمن يجمع تحفاً.

ثم توجهوا إلى البحر، وكانت الأعشاب على الشاطئ عالية تكاد تصل ارتفاع الصدر، وفجأة سمع زملاءه يتصايحون:

- حية، حية..

وإذ بشيء ضخم يشبه الأفعى، ولكن هذه لها أرجل
(والأفاعي ليس لها أرجل).

فر الحيوان مذعورا من الصبية.

- إلحقوا بها.

- إنها تجري نحو البحر.

مع الفرار، يدخل الحيوان الهارب إلى البحر، وبعد ثوان
تسكن حركته.

- اسحبها من ذيلها.

يسحب الغلمان الحيوان من الماء، فتبين أنه سحلية
كبيرة (عظاية).

- إنها ميتة..

- طبعاً ستموت، (يقول أحد الكبار)، وهل من كائن
يبقى حيا في البحر الميت؟ لماذا سمي بالميت إذا؟

نزع الصبية ملابسهم كما ولدتهم أمهاتهم ونزلوا في
البحر يسبحون.

لم يكن أحمد يحسن السباحة، ولكن الماء حمله،
فإذ به يطفو على الماء بدون أي جهد²¹ فاستهواه هذا الأمر
وجعل يسبح حتى ابتعد في البحر مع صبي آخر أسود اللون
اسمه زايد، لم يشعر بمرور الوقت حتى سمع الصفارة، وأحد
المتطوعين ينادي عليهما، فلما عاد وزايदा وجد الأولاد قد
اغتسلوا في ماء عذب فلم يدركا ذلك، لبس بنطلونه فقط،
وبقي القميص محتفظا بالمعلبات، ثم تحرك الباص، وبعد
فترة قصيرة شعر بالاختناق، فقد سد الملح مسام الجلد وأخذ
العرق يسيل من أنحاء جسمه، فصرخ:

- أنا اختنق، أغيثوني..

فقام أحد الكبار ويدعى (شاكر) فأوقفه على باب الباص،
وأمسك بالعمود فارتاح قليلا مع هبوب الهواء، وأوصى شاكر
السائق أن يقف عند أول قناة للمياه، وفعلا توقف السائق عند
أحد القنوات، ونزل فغسل جسمه العلوي.

- يا الله: لقد ارتحت.

ولما وصلوا إلى العوجا وكان بها نهر غزير رمى نفسه
بملاسه، وأحسن الاغتسال، ثم عاد إلى الخيمة يقطر ماء

بضعة أشهر أخرى في مخيم العوجا سيقضون فيها فصل الشتاء كاملاً حتى قدوم موسم الربيع.

موسم ظهور العقارب.

كانت العقارب جزءاً من ذاكرة أحمد في مخيم العوج.

الأرض تمتلئ بالثقوب، وكان قدر الله أن يلدغ أحد هذه العقارب امرأة اسمها فتحية الشريف لدغة تامة متمكنة أدت إلى وفاتها.

لكن الأطفال والفتية لا يعجزهم شيء، وهم جاهزون لقبول التحدي، فقد تعلموا كيفية استخراج العقارب من جحورها والقضاء عليها.

مثل أن يقوم واحد بأنزال خيط صوفي بالثقب، فيخرج العقرب متعلقاً به، أو يقوم آخر بسكب الماء في الثقب ليخرج العقرب مولولاً، وكان ممثل الصليب الأحمر يجمع منهم العقارب، ويعطيهم في مقابلها ألعاباً وهدايا.

مخيم العروب

والآن يستعد الجميع إلى النزوح الخامس والأخير إلى مخيم دائم -مخيم العروب- فقد قرر الصليب الأحمر إغلاق مخيم العوجا.

بعد النكبة: أقام الصليب الأحمر مخيمات للاجئين الفلسطينيين، وكان منها (مخيم العروب) الذي أقيم بين الخليل وبيت لحم وانتقل إليه جمع كبير من اللاجئين، كان من ضمنهم أبو داود وأبناءؤه الثلاثة وإخوانه وأبناء عمومته، وأبناء خؤولته، وآخرون من مغلس ومن قرى أخرى.



خيام على مد البصر، لا تكاد تقي قاطنيها حر الصيف
ولا برد الشتاء، الكل مهموم مكلوم يندب حظه وحياته، والكل
يعاني شظف العيش.

في مسقط رأسه: كان أحمد يعود إلى بيته بعد يوم
طويل يقضيه في اللعب والجري ما بين أزقه البيوت والحواكير
والبساتين أو في سهول المراعي والغابات والمغاور المجاورة،
ثم يعود آخر النهار ليجد العشاء اللذيذ.

بيض، وجبنة، وعسل، وزيت، وزيتون، وزعتر، ومربيات،
وفواكه، وخضار، مع خبز الطابون الحار اللذيذ الذي لا عدل
له إلا في الجنة، وماء بارد زلال من الزير²² بالتبريد الطبيعي.

لكنه يقف اليوم في مخيم اللاجئين على الطابور ينتظر
دوره ليستلم حصته من المساعدات التي قررها الصليب
الاحمر (كيلوغرامان من الطحين فقط).

فأين هذا الزمان من ذاك الزمان؟

في العروب: سيتعرف على الكثير من الخلق من قرى
شتى، وسيسمع قصصا شتى، كل يروي حكايته ومأساته.

حل فصل الشتاء على مخيم العروب، وكانت خيامهم في أرض طينية، وبدأ الثلج يهطل بغزارة بدون انقطاع ليلاً ونهاراً، يدخل الماء إلى خيمتهم من الأسفل بكثرة، وتجري من تحتها الأنهار، لكنها أنهار من ماء بارد قارس مؤلم.

- أرض الخيمة صار بركة متحركة من الماء.

- حاولنا توجيه الماء من خارج الخيمة، ولكن هيهات، نحن في وسط مستنقع كبير.

- ينبغي رفع الفرش إلى أعلى.

- كيف؟

- نضع النش، والبساط فوقه.

عمد الرجال إلى نبات النش (ويسمى أيضاً: البلان) فوضعوه على أرض الخيمة المبتلة وفرشوا البساط فوقه، ثم وضعوا فرشاة النوم فوق البساط، واستمر الماء يجري تحتها وفي صباح أحد الأيام تنهار الخيمة فوق قاطنيها من الجوانب الأربعة، لم يستطع أحد أن ينهض من مكانه، وجعلوا يستغيثون، فهرع إليهم جيرانهم.

- أخرجونا من هنا.
- الثلج يغطي الجوانب كلها.
- شرع الرجال يجرفون الثلج عن أذيال الخيمة بهمة، وبعد جهد رفعوا الخيمة وأخرجوا من كان تحتها.
- لقد انهارت الخيمة بعد أن جرف الماء التراب والطين من تحت الأعمدة.
- لقد ساخت الأرض.
- الأجواء قاسية، لا بد من العمل بسرعة على إصلاح الحال.
- نحتاج كمية من الحجارة الكبيرة لتثبيت الأرض تحت الأوتاد.
- وتم ذلك..
- ثم توقف هطول الثلج في اليوم التالي.
- نظر أحمد في الأفق، كانت الأرض بيضاء مغطاة كلها بالثلج، والسماء بيضاء، وحيثما نظرت لا تجد إلا البياض،

ولهذا لم يكن الثلج يثير ذكريات محببة لدى أحمد، بل كان -نتيجة هذه المعاناة- إذا نظر إلى الغرب فلمح غيوما كثيفة ينزعج ويطير صوابه خوفاً أن تتكرر الواقعة، لكنها كانت في الواقع حالة استثنائية، حتى إن الثلج هطل في أريحا وهو في قلب الأغوار.

نتيجة لما حصل في الخيام من جراء الأمطار والثلوج قررت إدارة المخيم نقل الخيام كلها إلى الجبل المقابل الذي يسميه أهل المنطقة جبل أبو سودة، وفي الموقع الجديد أخذوا منهم الخيمة ذات الأعمدة الثلاثة، وسلموهم خيمة ذات عمود واحد يطلق عليها: زعموط.

أدرك الناس أن الحرب قد توقفت، فيقوم الصليب الأحمر بإنشاء مدرسة في ساحة من ساحات المخيم، فيقرر أبو داود أن يرسل ولده إلى المدرسة ليتم الصف السادس، وذلك بعد انقطاعه عاما دراسيا كاملا.²³

ولكن: أين أم داود من كل هذه الأحداث.

نشأ أحمد يتيماً الأم، وقد كانت أمه مريم هي الزوجة

23 كان مدير المدرسة عبد الله أحمد سرحان من تبنه، ومن المدرسين الذين عقدوا فصولاً: شاكراً عليان من عجور، وعبد الفتاح سويلم من عراق المنشية، وعبد الهادي مشعل من زكريا، ومحمد شتات، ومحمد خالد، ومحمد الراعي، وكان فيها أيضاً الشاعر خليل زقطان من زكريا مدرسا لمادة الأدب العربي

الثالثة لأبيه، كانت شابة يافعة يوم تزوجها، فيما كان الأب قد جاوز الستين من عمره، وذلك بعدما توفيت له زوجتان قبلها، ولم يرزق من أي منهما بالذرية.

أنجبت له مريم كل أبنائه: داوود، ثم أحمد، ثم محمد الذي قضى طفلا قبل أن يمشي على قدميه، ثم فاطمة، وكان قدر الله أن يفقد الكهل زوجته الثالثة أيضا في عام 1945 وهي في ريعان شبابها ولمّا تפטّم ابنتها.

وبوفاتها: وقف الشيخ حائرا أمام أطفاله، وكان لانقطاعه عن الأرض الطيبة التي تجود دوما بالخيرات، مع تقدمه في السن أثرا شديدا عليه، ثلاثة أثافي قصمت ظهره، ولم يعد قادرا على تأمين لقمه العيش لأبنائه، وبخاصة مع نفاد مخزونه من المؤن في الخليل.

وأما المال، فقد نفذ ما كان معه من النقود القليلة، فإن مرض الأم ومصاريف الأطباء والمستشفيات طيلة سنوات ثلاث لم يبق معه إلا القليل، حتى اضطر إلى بيع الصوف الذي كان في الفرشات واللحف والوسائد واستبدله بالقطن، وكان عنده بساط من الصوف منسوج باليد لو بقي إلى اليوم لعد من التراث ولم يقدر بثمان، وقد باعه، كما باع الأساور والحلي

الفضية التي كانت لزوجته.

يعود أبو داود يوما إلى الخيمة وقد بدا أن الهم قد
تضاعف عليه، وجلس واجما في زاوية، فجاءه ولده يسأله:

- ما الأمر يا أبي؟

- لقد سرقوه.

- ما هو؟.

- الجُزدان²⁴

نشله مني نشال في سوق الخليل، وفيه المال وشهادات
الميلاد والكوشان²⁵ والأوراق الثبوتية.

لو يعلم هذا النشال أنه بعمله هذا أضاع آخر وثيقة تربط
هذا الرجل بأرضه وتثبت ملكيته لها.

الجُزدان: حافظة الأموال والأوراق الثبوتية

24

الكوشان، أو القوشان: سند تسجيل ملكية الأرض

25

فران، وعامل بناء

ولكن: كان من فضل الله عليه أن وجد مصدر رزق بسيطاً جاءه عن طريق ولده داوود، فقد عمل داوود مساعداً لفران في مخبز صغير يملكه أحد اللاجئين حتى أتقن صناعة الخبز، ثم اضطر هذا اللاجئ إلى ترك المخيم، فأشار داوود على أبيه بشراء الفرن، فاشتراه والده بستة دنانير، ولم يكن يملكها، فاستدانها.

أما أحمد فقد اضطر إلى ترك المدرسة بعد أن أتم الصف السادس للمساهمة في الإعالة، فصار يشتغل عامل بناء يتنقل بين المشاريع التي تعهد بها الحكومة إلى المقاولين في أواسط القرن العشرين، وأكثرها مشاريع في رصف الطرق بين المدن الرئيسية التي كان أغلبها طرقاً ترابية، وكان إذا عاد إلى المخيم يساعد أخاه في عمل الخبز، ويسهران بعد العشاء في أحد أطراف المخيم.

يقص أحمد على أخيه قصص العمل في ورشات الطرق، والتحريج، والرصف.

- سأغادر غدا للعمل في طريق عمان - سحاب،
والبداية من منطقة تسمى أبو علندا، هم يقولون أن غار أهل
الكهف المذكور بالقرآن موجود هناك.

- وهل انتهى العمل في الطريق السابقة بالكامل؟

- تقصد طرق ماحص- الفحيص، وطريق صويلح-
السلط؟

- نعم.

- أجل، وعملت قبلها في طريق الموجب - الكرك.

- وقبلها؟

- في طريق العارضة، وفي توسعة حراج جبل أبو سودة.

- أصبحت خبيراً في طرق الأردن.

- مكره أخوك لا بطل.

ويقص داوود قصص المخبز.

- نحن نحتاج الحطب وقوداً للفرن، وأكثر حطبنا من
النتش، ولذلك صار النتش مصدر رزق لبعض بنات المخيم.

- البنات يجمعن الحطب ويحزمنه، ويحملنه إليك.
- كل حزمة بأربعة قروش.
- ما عدا واحدة.
- نعم، بنت واحدة تأتي دائماً بحزمة كبيرة، نأخذها منها بخمسة قروش.
- وبينما هما كذلك ينتبهان على حريق في إحدى الخيم، ومعه صوت جلبة.
- انظر، حريق.
- إنها جهة خيمتنا.
- الله يستر.
- يقفز الشابان نحو جهة الحريق.
- يا إلهي، إنها خيمتنا فعلاً.
- أبي وأختي كانا في الخيمة.
- يصلا المكان، ويحمدا الله أن أباهما وأختهما كانا بخير،

فقد انتبه الكهل وأخرج ابنته قبل ان تتشبث النار بملابسهما
استحالت الخيمة رمادا، لقد التهمتها ألسنة النار بسرعة
بسبب الشمع الذي كانت تطلّى به الخيم، حتى لا ينفذ ماء
المطر من خلال قماش الخيمة (الشادر).
نظر أحمد تلقاء أبيه، فوجده قد أخذ زاوية وجلس فيها
صامتا، يقلب كفيه، وسأل نفسه.
- هل يفكر في الفرش الذي احترق، أم أين سيبيت
الليلة، أم في ابنته الخائفة.
لم يكن يعلم أن ذهن والده رجع سنين إلى الوراء.
أيام كان في مغلس.

مجلس

قرية فلسطينية بارعة الجمال، تقع جغرافيا في منتصف فلسطين، تتبع قضاء²⁶ الخليل في أقصى الطرف الغربي منه على تقاطع أربعة أفضية: القدس والخليل والرملة وغزة، كانت تابعة لقضاء الرملة قبل العام 1940 وتحولت بعدها إلى قضاء الخليل، ولهذا فأن شهاده ميلاد أحمد كانت صادرة من الرملة.

سقطت القرية في أيدي العصابات الصهيونية في العاشر من رمضان من عام النكبة 1948 وقام اليهود لاحقا بتجريفها تماما ولم يبق من بيوتها أي أثر، وأقيم فوقها مستعمرة غيفين، ولو أتيح لك الفرصة لشاهدت في غيفين أشجار زيتون هرمة، لعلها كانت في بيت أبي داود.

يقال أن اسمها مأخوذ من الغلس (وهو وقت آخر النهار) إذ أن جيش عمرو ابن العاص أغلس وبات فيها في مسيره نحو أرض الكنانة.

وقيل: بل سميت على اسم الفقيه: عبد الرحمن ابن المغلس.

وقيل: بل لوجود كنيسة المخلص القديمة فيها والتي اندثرت.

قرية من قرى العرقوب (وهو السفح الذي يصل جبال الشرق بالسهل الساحل الفلسطيني امتدادا إلى البحر الأبيض المتوسط).

كانت القرية تقع على ظهرة²⁷ يحيطها وديان محلية²⁸، كان أهمها وادي البير، وفيه بئر العلم أو بئر العلمين، وهي بئر القرية الرئيسية التي كان مأوها مشهورا بعلاج حصر البول، وذاع صيته في المناطق المجاورة، وكانت مزارا للمستشفين من هذا العياء. وكان أهم القرى المحيطة بهذه القرية²⁹: سجد وتينة من الشمال.

27 الظهرة: التلة المرتفعة عما حولها

28 أهمها: وادي البير، ووادي الحفائر، ووادي المناخ، ووادي أبو علي، ووادي أم صهريج

29 كان يسكن القرية عشيرة أبو عجمية، وعشيرة المغالسة، وعشيرته الشرفاء أو دار الشريف، وبعض العائلات الصغيرة من الصرابطة والجبالي وأبو نهار وأبو عيد، وكان للقرية مختاران: الأول يكون دائما من عشيرة أبو عجمية كونها الأكثر عددا والثاني يكون بالتناوب بين دار المغالسة ودار الشريف، ووقت وقوع النكبة كان المختاران هما: خليل أحمد أبو عجمية وحسين محمود حماد، وعشيرة أبو عجمية فرع من أبو طربوش من الدعاجنة وقد وقع دم هناك بين هذا الفرع وبين جمع من أهل دورا الخليل فارتحل على إثرها الجد حرب أبو طربوش إلى مغلس بحلاله من الأنعام واستقر فيها وأولاده، وكان لا يستغني عن سلاحه المثبت إلى جنبه، وهي حربة عجمية، ومن هنا كان الاسم: أبو العجمية، وكان أحمد من هذه العشيرة

قزاة وجليا ومن الغرب.

اذنة من الجنوب الغربي.

تل الصافي من الجنوب الشرقي.

عجور وزكريا والبريج من الشرق.

وكان بالقرب منها قبانية كفار مناخم (أو كوبانية كفار
مناحيم، والقبانية هي المستعمرة اليهودية) التي أقيمت
على أراضي اذنة، وكان فيها عيادة تعالج المرضى، وكانت
الإشاعات تحوم حول وجود مستودع للأسلحة في داخل
العيادة.

الأعرج

لم يكن في القرية أو حولها أي طرق معبدة، وكان أقرب
طريق معبد يبدأ من عجور ذهاباً إلى بيت جبريل، ولم يكن
أحد من أهل القرية يمتلك سيارة أو شاحنة أو تراكتوراً زراعياً،
وإنما عربات تجرها البغال، ولذلك كان قدوم سيارة للقرية
حدثاً استثنائياً يتدافع الناس لرؤيته، وبخاصة الأطفال.

يصل تاجر العسل (متري صوصو) قادماً من الرملة إلى
مغلس لشراء العسل والشمع بسيارته البيك أب، يتراكم

الصبية حول سيارة متري ويتفافزون حوله يرجون أن يحملهم
على ظهر البك أب في جولة حول القرية كعاداته.

يتمنع متري متدللاً، ثم يقول بابتسامة أبرزت أسنانه
الصفراء.

- أمري لله، اركبوا..

يسمع بقية الصبية بقدوم السيارة فيتوجهون نحو السيارة
قافزين فوق الحواجز الحجرية الفاصلة بين المزارع مختصرين
الطريق.

يركض أحمد ليدرك الحفل، ويحاول أن يجتاز السنسلة.³⁰

يتقدم أحد الشباب الأكبر سناً ويحمله بين ذراعيه لينزله
عن ظهر السلسلة، ولكن حدث ما لم يتوقعه أحد: تهتز
السلسلة وتنهار فوق الطفلين بكل حجارتها، فأما الكبير فلم
يصب بشيء، وأما أحمد فانطلق يصيح من الألم.

لقد كسرت قدمه من الفخذ.

لا يتذكر أحمد كل تفاصيل الحادثة فقد كان صغيراً،
في سن الثالثة أو الرابعة، ولكن ما روي له عنها أن العبد سالم

السنسلة: السلسلة، وهي السور الحجري المرصوف الذي يقام جداراً للبتان

(عبد العزيز محمود سالم) قام بتجيير الكسر.

تمت العملية، ولكن الألم كان يزداد، والانتفاخ يزداد،
وصادف أن لاحظ ذلك الحاج عثمان مسلّم من عجور،
فكشف عن الجبيرة وعلم من فوره أن هناك كسرا آخر.

فكان التجيير الثاني.

ويبدو أن الكسر كان شديدا إذ بقى الفتى مدة وهو يعرج
بسببه، وبه سمي: الأعرج.

لم تكن هذه المرة الوحيدة التي احتاج فيها أحمد إلى
العلاج، ففي طفولته المبكرة ولم يكد يبلغ من العمر ستة
أشهر ظهر ورم شديد في رقبته، وأخذ يتوسع وينتفخ حتى صار
مثل الجراب، وكان لا بد له من زيارة المستشفى في يافا،
ولكن هيهات، فقد كانت هذه أشد أيام الإضراب الفلسطيني
الكبير، وكانت كل الطرق والمواصلات مغلقة.

ولكن الورم يزداد، فما العمل؟

لا بد من اللجوء إلى حلاق القرية.

في تلك الأيام كان الحلاق هو الطبيب والمجبر في
القرى الصغيرة، وكانوا بالأساس يتدربون على البهائم، وكان

أكثر ما يفعله حلاقو القرى هو ربط الجروح، وخلع الأسنان الملتهبة، والحجامة بكاسات الهوا والفصد، ثم التجبير، وكان في القرية يومها حلاقان.

الأول: علي عبد ربه سمارة، والثاني: عبد العزيز عبد الهادي المغالسة.

يسأل علي عبد ربه أبا داوود قائلاً:

- كيف الولد يا خال؟

- «الولد ييموت، ومش طالع بيدي شيء».

- أحضره إلي لأراه.

يحضر أبو داوود طفله إلى الحلاق.

- أرى أن نفصد هذا الورم يا خال، تماماً كما نفعل بالحجامة.

- يا بني، إن الرقبة مجمع للشرابين والأوردة، وأخشى عليه أن ييموت.

- يا خال، إن بقي على هذه الحال سيموت حتماً، وأما

إن فصدت الورم، فيوجد احتمال للشفاء.

- توكل على الله.

يفتح الحلاق الدمّل الكبير، وينظف المكان من الصديد،
ويمسح الجرح الذي امتد على مساحة واسعة من الرقبة،
ويكتب الله الشفاء على يديه، وستبقى آثار هذه الملحمة
بادية على رقبتة طوال حياته.

البيت

بيت العائلة الممتد..

بيت جده.

بيت كبير مربع الشكل، له بوابة كبيرة تدخل منها الجمال والأبقار، وكان هذا قبل أن تكثر البهائم وتضاف إلى البدّ.

هذه السقيفة للجدة، وهذه دار والده أبي داود، وهذه دار عمه مصطفى، تليها دار عمه خليل، هنا مخزن الحطب الذي يزود الجميع، ولكل دار مستودع أو مخزن، وفي كل بيت خوابي (أهراءات) لتخزين الحبوب.

جدران البيت من الطين والحجر، والأسقف محمولة على دوائر حديدية³¹ فوقها الخشب والبوص، ثم الطين المصبوب، وكانت البيوت متلاصقة، يقفز الأولاد من سطح إلى سطح.

واليوم..

هو يوم قروي جديد قبل النكبة يبضع سنوات، يوم كله
عمل، وكله متعة.

تنادي أم داوود على ابنها وهي ذاهبة بكل نشاط وهمة
إلى الطابون³² وكانت امرأة شلشة.³³

- أحمد.

- نعم.

- اذهب وأحضر الزّبل وتعال.

كان لكل بيت طابون للخبز، وكان وقود الطابون هو الزبل
(روث البهائم) أو القصل (القش)³⁴ أو العرموط (قشر الذرة)،
وكله من بقايا الحصيد.

وكان ينبغي تجفيف الزبل، فكان ينشر في الشمس تحت
الهواء حتى يجف ثم يخزن في الطابون، إذ كان الطابون من
قسمين: مخزن وموقد، كما كانت هذه الأنواع وقود المفاحم
(التول) الذي يجب أن يكون مكمورا³⁵ وإلا استحال الفحم
إلى سكن.³⁶

32 الطابون: فرن الخبز المصنوع من الحجر والطين

33 امرأة شلثة: نشيطة، سريعة الحركة، ذات همّة

34 القصل أخشن من التبن لوجود العقد الموجودة في الساق وتكون السنبلّة في رأسه فلا تأكله

الدواب

35 مكمورا: محكم الإغلاق

36 السكن: الرماد

والخبز المعتاد هو ما كان مخلوطاً من دقيق الذرة
والقمح، وأما عجينة القمح الخالص فكان للمناسبات فقط
تضحك أم داوود:

- ومن يحتاج إلى الفرن وفي كل بيت طابون؟

لقد وصلها خبر إغلاق الفرن الذي أنشأه خليل، وأقام
عليه إبراهيم سمارة عاملاً.

تفوح رائحة الخبز الشهية، وعلى الإفطار يتحدث الوالد.

- داوود وأحمد، أخرجوا بالحلال إلى المسقى والمرعى،
ولكن قبل ذلك نريد طعاماً للجمل، لقد أوشكت الكرْسَنَة³⁷
أن تنفد ويلزم نقع المزيد منها...

نقع الكرْسَنَة أطيب وأبرك وأنفع للجمل.

يذهب الصبيان إلى البدّ ويسرحان مع الأبقار الخمسة التي
تعود لأبيهما: غزالة، وهلاله، وليلى، والسمعانية، وخميسة،
وكانت خميسة أحبهن إلى قلب أحمد، ثم الأغنام، وتعدادهن
عشرة، وكان الحمار معهما، أما الجمل فيبقى تحت تصرف
الوالد في مهمة نقل الماء من ذات البئر، وفوق الأنعام كان

الكرْسَنَة: نوع من الحبوب يوضع غلفاً للطيور والبهائم

يتوفر لديهم الطيور من دجاج وحمّام، وكانت الأم قد حلبت اللبن من الأبقار في الصباح الباكر.

تسقى البهائم عادة من البركة، وهذا لأن البركة تمتلئ بالماء مع نزول الأمطار، ولكنها تنقطع بعد فترة من توقف الأمطار، فيعود الأمر إلى سقي البهائم من بئر البلد.

بئر العلمين..

وهي بئر طبيعية عميقة في الصخور، مأوها زلال غزير مدرار، ونظرا لكثرة روادها وغزارة مائها، ونظرا لعمقها وصعوبة الوصول إلى قعرها فقد تصالح الناس على أن يقيموا عليها من يسحب الماء ويجمعه في خزان كبير مزود بالصنابير.

يربط القائم على البئر الدلو الكبير بحبل ثخين إلى جمل يسحبه، ثم يفرغه عن محتواه في الخزان.

واليوم تحديدا كان أبو داود مع ولديه عند البئر، هما جاءا لسقي الحلال، فيما جاء هو لنقل الماء على جملة إلى البيت ليفرغه في الهشّة³⁸ وكانت هذه الهشّة مشتركة مع أخيه مصطفى، والتي توضع في صدر البيت مرتفعة عن الأرض ومغطاه بمُعَرَّش³⁹.

الهشّة: وعاء الفخار الضخم الذي يستخدم خزانا ينزح منه الماء إلى الأزيار الأصغر حجما

المعرش: العريشة

وصل الولدان بعد أبيهما، وفي انتظار أن ترتوي البهائم
يصل زائر من الخليل اسمه (عبد الله الخليلي) جاء خصيصاً
للاستشفاء من حصر البول، كان الرجل بادي المرض، شاحب
الوجه، يسنده زميل له ويوصله إلى طرف البئر.

يرقب الولدان الرجل المريض وهو يملا الكيلة⁴⁰ ويشرب
ويعبّ منها عبّاً وكأنه كان قد أظماً جوفه لهذه اللحظة، وبعدها
جلس الخليلي وزميله في الظل يرقبان الناس غادين رائحين
يشاهدان الرعاء يطعمون ثمار الصبر للأغنام والبقرة أعلافاً.
يلكزه صاحبه قائلاً:

- أنظر: نحن نشترى الصبار بالكوز⁴¹ وهم يعلفونه للبهائم
في المذود⁴².

- أن لكل أرض ثمراتها وخيراتها ولكل أرض ما ينقصها
ويشوبها، والله يمن على من يشاء من عباده.

لقد شاع خبر هذه البئر في القرى المجاورة، وهناك
قصة مشهورة تناقلها الناس عن بدوي سبعاوي جاء بجمل له
مصاب بحصر البول، فأوقفه على البئر يشرب حتى ارتوى،

40 الكيلة: المكيال

41 الكوز: العتقود من الذرة

42 المذود: وعاء الأعلاف

والبدوي قائم لا ينفك يدعو الله، وفجأة -وأمام أنظار المرتادين- يقفز الجمل ويفرغ مثانته على وقع صيحات صاحبه وتكبيراته. في فصل الشتاء، ومع نزول الأمطار تكثر البرك والمستنقعات الصغيرة يمنة ويسرة، ويتكاثر البعوض والناموس، فكانت مصلحة الصحة تقيم من يعمل على قش البرك وتجنيفها وسكب السولار فوقها منعا لنقل العدوى.⁴³

بعد أن ازداد سكان القرية عددا حاول أهلها أن يحفروا بئرا أخرى في وادي الحفاير، ولكن مياهها صدرت زنخة⁴⁴ كريهة لا تصلح ربا ولا سُقيا ولا سباحة فضلا عن شربها، ولعله كان فيها بعض من النفط.

بعد أن ارتوت البهائم توجه الصبيان نحو المراعي بصحبة آخرين من أبناء القرية إلى المناطق السهلية المفتوحة، يسرح بها أصحاب الأنعام في أوقاتها ومناسباتها حسب أنوائها وطوالعها، وكانت الأنعام مصدر الغذاء الأساسي من الألبان والأجبان والسمن، وهذا إضافة لعملها في الحرث والدرس والجبر، وهي -مع الجمل والحمار- عدة الفلاح الأساسية لا يستغني عنها بحال، بل كانت في عيدها معيار الثروة

43 السولار: الديزل

44 زنخة: زهمة

والتبسط، وقد اضطر أبو داود بعد النكبة إلى بيع حلاله كله، ورغم أنها بيعت بثمن زهيد إلا أنه بقي يصرف من ثمنها حتى العام 1951.

عاده ما يستغل الأولاد فسحة الوقت في زيارة بعض المعالم حول القرية مثل المزارات والأضرحة، أو كانوا يروحون إلى خربة عمورية حيث يشاهدون خربة القسيس وخربة غلوس وخربة النعمان.

هذه المرة يتفق الصبية على الذهاب إلى خربة النعمان وفيها مغاور وكهوف لا زال فيها بقيه من الآثار، كان أوضحها (الرسم) وهو لوحه سيفسائية مطبوعة على أرض منخفضة كأنها فوهة بركان.

يذهب بعض الأولاد إلى الرسم ويتركون آخرين منهم يلحظون الحلال، وفيما يصل الصبية من الجهة الغربية وبمجرد أن تطل رؤوسهم يشاهدون فرقة من الكشافة اليهودية يقتربون من الجهة الشرقية.

كان معهم حقائب فيها الكثير من الأغراض: أوراق ملففة، ودفاتر، وأقلام، وكاميرات تصوير، وسجلات وملفات

- هؤلاء يهود قادمون من كيبانية كفار مناحيم.
- صحيح، يقول أبي أنهم يزورون كل المناطق ويصورونها ويسجلون معلومات عنها.
- نعم وبخاصه المناطق الأثرية.
- الأفضل أن لا نحتك بهم، وعلينا أن نعود أدراجنا.
- صحيح، تأخر الوقت.

يعود الصبية من خربه النعمان إلى المرعى ثم يعودون أدراجهم إلى القرية، وفيما يركض أحمد إلى أمه ليقص عليها بلهفة ما رآه عند البئر من خبر عبد الله الخليلي، وما رآه عند الرسم من خبر فرقة الكشافة اليهودية كانت الأم منهمكة في إعداد اللبن والجبن والسمن وتحضير الطعام وتجفيف الخضار لفصل الشتاء، وتقول لزوجها حامدة شاكرة.

- مع هذا العدد من الأنعام لا حاجة للفلاح في شراء السمن أو الجبن، فالإنتاج وفير مبارك وقد يزيد عن الحاجة، فيخزن للشتاء أو يهدي للأقارب والجيران.

يحدثها زوجها واقفاً:

- من العيب بيع السمن حتى لو فاض عن الحاجة،
لقد حاول إبراهيم العبد مرة أن يبيع سمنا، فعاب عليه أهل
القرية فعلته، وانتهره، وأكثروا اللوم عليه، فاضطر أن يتراجع،
يتوارى من القوم من سوء ما هم به.

- يستأهل..

- هل أتاك خبر ما فعل اليوم؟

لقد قام بتهريب السمن خلسة إلى عجور قبل بضعة
أيام، وخرج اليوم خالي اليدين ليتم الصفقة هناك.

- عيب عليه والله.

- نعم عيب.

- نريد بعض الكاز يا أبو داود.

- سأرسل الولد.

ينادي أبو داود ولده.

- اذهب إلى دكان سيدك حسن وأحضر لنا جلنا من

الكاز⁴⁵.

كان في القرية دكان واحدة أساسية متواجدة في ساحتها الرئيسية في الحارة، قريبا من مسجد القرية ومدرستها، قام عليها حسن الذي سيصبح ابنه محمد لاحقا أول تجار العشيرة في مهجرها في الأردن وسيكثري محلا في وسط العاصمة عمان في سوق السكر.

كان بالدكان بضائع لا ينتجها المزارعون عادة: الكاز، والكبريت، وخيوط التطريز، والشاي، والسكر، ودبس التمر والعجوة، وكان هناك دكان أخرى أصغر منها في الطرف الآخر من القرية قام عليها كامل الشريف.

لم تدخل خطوط الكهرباء للقرية فكان أهلها يستخدمون السراج، وهو القنديل ذو الفتيل واللمبة الزجاجية، ويوقد له بالكاز، أما اللوكس أو الشنبر فلم يكن شائعاً.

في الليل يقوم الفلاحون بدرس الذرة، ويحتاجون للإنارة، وهنا لا يصح إيقاد الحطب حتى لا تمتد النار وتلتهم المزارع، لكن النار كانت توقد في الأعراس والمناسبات والتجمعات.

ليل الصيف القصير ونهاره الطويل وانهماك الناس في كثير من الأعمال لا يترك مجالا لأكثر من سهر محدود يتلوه

النوم، أما ليل الشتاء فطويل، فيحلو فيه السمر وبخاصة مع قلة الأشغال نهاراً.

يجلس الكبار يتسامرون، أو يلعبون السيجة (النقدة) في الحارة أو أمام ساحات البيوت.

لم يكن بالقرية حتى وقوع النكبة مقهى أو ناد للشباب، ولذلك اعتاد الناس على السمر بتبادل الأحاديث أو بالاستماع لشاعر شعبي من المحترفين يقص عليهم تغريبة بني هلال، أو الزير سالم، أو سيف بن ذي يزن، وقد يكتفي الناس بالسماع لشاعرهم محمد سمارة الذي كان يلقي الأشعار بالبديهة والسليقة، وأما الأطفال فقد يأتيهم من خارج القرية من يقدم لهم الألعاب، مثل صندوق العجب يروي فيه قصة الإمام علي مع راس الغول.

أكان أحد من القرية يتوقع أن يأتي يوم تكون فيه تغريبتهم حديث المجالس؟

أو تكتب فيه الروايات؟

أقطع أن الجواب: لا...

الجلوة والصلح

مما يذكره أحمد- وكان في بداية وعيه، وعمره بحدود الرابعة- أنه شاهد سيارة غريبة الشكل (مدرعة)، تبين له لاحقا أنها سيارة عسكرية تابعة للبوليس.

- ما هذا، لماذا تقف هذه السيارة أمام دار عبد اللطيف سمارة.

- إنهم البوليس جاؤوا لحماية عائلة أبو حديد.

- يحمونهم؟ ممن؟

- من عشيرتنا، لقد قتل أحدهم عمر الشيخ.

- كيف؟

- تشاجر عمر مع واحد منهم، ولأن عمر ضخم الجثة قوي البنية فقد فر منه الآخر، ولحقه عمر، وإذ بشقيق الهارب يعترضه في الطريق، ويرميه بحجر شج رأسه، وكانت إصابة قاتلة.

- متى حصل هذا؟

- كله حصل اليوم في ساعات الصباح، ولم يصل الخبر إلى أغلب الناس، فقد كانوا في الحقول يحصدون محاصيلهم، لذلك حضرت الشرطة فوراً خوفاً من انتقام عائلتنا.

بقيت الشرطة في القرية إلى أن تم إجلاء جميع أفراد عائلة أبي حديد إلى قرية المسمية وكان هذا في العام 1940، ثم قام أفراد عائلة عمر القليل بهدم دورهم من أساساتها، وبقيت مهدامة حتى احتلال القرية.

مضت سبع سنوات على جلاء عائلة أبو حديد من القرية وتقرر أخيراً إجراء الصلح ودفعت دية القتل، وجاءت الوفود من القرى المجاورة تساهم في الصلح.

جاء (أبو نجيب مهنا) وجيه قرية المسمية متكلماً وكفياً عن عائلة أبو حديد، وجاء (حسن عبد العزيز العزة) وجيه عجور متكلماً وكفياً عن عائلة أبو عجمية، وكان التجمع في الجسر.

على مدى أشهر سابقة من المفاوضات، تم الاتفاق على

تفاصيل الصلح، ولم يبق إلا الإعلان والتنفيذ بصورته الرسمية.

حضرت الوفود..

وحضر البوليس.

واستعد المحتفلون بالذبائح والقذور لإطعام الناس طعام الصلح: (المنسف).

كان الصغار ينتظرون نضج اللحم.

تم الاتفاق، وبدء فرش المناسف تمهيدا لتوزيع اللحم الناضج، ثم وقعت مفاجأة.

فقد اندفعت نساء من بنات عم القاتل ومعهن أخريات، وهجمن على المطبخ، وأخذن يكفأن القذور على الأرض.

فدبت الفوضى، وانتفض الناس.

فاعتلى البوليس ظهور الخيل يضربون ويعتقلون رجالا من العائلة واقتادوهم إلى مركز بيت جبرين وهناك تم إجراء الصلح رسمياً.

وبعد يومين عاد رجال العائلة إلى القرية، أما عائلة أبو حديد فلم يعودوا للقرية بل بنوا بيوتا في أرض لهم تقع شمال القرية تسمى أم الشقف.

مدرسة مغلس

سيذهب أحمد اليوم إلى المدرسة لأول مرة في حياته، هي ليست مدرسة بالمعنى الحديث، وإنما كُتّاب من الكتاتيب، وقد كانت المدرسة الوحيدة في القرية، يقوم عليها الشيخ محمود أحمد حسين، وهو أيضا إمام مسجد القرية الوحيد والخطيب فيه، وكان المسجد ملاصقا للمدرسة.

كان الشيخ يصعد سطح المسجد -الذي كان بلا منارة- يؤذن للصلوات ويؤم الناس ويخطب ويدرس، وفرض الشيخ على الطلبة الذهاب إلى المسجد الذي كان مكونا من غرفة واحدة ربما كان ذرعها ثمانية أمتار في ستة أمتار.

تقع المدرسة عند الحارة⁴⁶، وهي مدرسة قديمة⁴⁷، وكانت المدرسة أهلية حتى العام 1946 عندما انضمت لوزارة المعارف التابعة لحكومة شرق الأردن، ويتذكر أحمد سرور

46 يقصد بالحارة هنا: المضافة المركزية، وليس الحي من الأحياء كما هو متعارف عليه في بلاد الشام من سوريا ولبنان والأردن وباقي فلسطين

47 كان يقوم على التدريس فيها قبل الشيخ محمود الشيخ عيسى الباز الخطيب من قريه عاقر، وقبله الشيخ شوكت من نابلس، وقبلهما الاستاذ عبد المعطي طالب من الخليل

الشيخ محمود بانضمام المدرسة إلى وزارة المعارف، فهذا معناه أنهم سيجرون له راتباً نظامياً، فلم يكن قبلها بالطبع رواتب ولا جريات، وإنما أُعطيات من الأهالي من المحاصيل الزراعية: من حبوب وأجبان، تدفع في المواسم الزراعية.

يُدّرّس الشيخ محمود كل المواد وحده في الفصول: القرآن الكريم، واللغة العربية، والحساب، وبعضاً من اللغة الإنكليزية، وبلغ من حرصه ونباهته أنه كان ينتظر الطلبة العائدين من مدارس القرى المجاورة فيسألهم عما تعلموه من اللغة الإنكليزية، فيحفظ منهم بعض المفردات ويعيد تدريسها لطلبته.

ولدخول أحمد المدرسة، ثم ارتقاؤه فجأة من الصف الثاني إلى الرابع قصة لطيفة.

ذات يوم طلب منه جده الحاج حسن تهجئة اسمه، ففعل، فأعجب بحفيده، وكان مدرس القرية الشيخ محمود قبلها يزور الحاج حسن كثيراً ولا يرد له طلباً.

- اسمع يا محمود، أترى هذا الصبي؟ أحمد.

- نعم..

- ضعه في المدرسة، في الصف الأول.
- إنه صغير يا عم.
- ما عليك من صغره فسيعجبك، وفي نهاية الموسم تأخذ نصيبك من القمح.
- على بركة الله..
- يدخل الصف الأول الابتدائي في العام 1943، وفي السنة التالية انتقل للصف الثاني، وكان الطلبة جميعاً في غرفة واحدة، من الصف الأول إلى الرابع، ولما كان أخوه داوود في الصف الرابع فقد كان يطلع على دروسه فيحفظها.
- وعلم الشيخ ذات يوم بأن مفتش المعارف سيزور المدرسة فأتاه الشيخ بالجريدة الرسمية التي تصدرها الحكومة.
- أحمد، المفتش سيأتي اليوم، وعليك أن تقرأ من الجريدة الرسمية.
- حاضر.
- لنجرب، اقرأ الآن أمامي.

شرع أحمد بالقراءة، فكان يقرأ الكلمات جيداً ولكن عندما يصل الأرقام يعجز عنها.

- لا أقدر على قراءة الأرقام.

- لا بأس، فقط تجاوز عنها.

وهكذا كان، جاء المفتش، واستمع للصبي بعناية، وبعد الإصغاء نطق المفتش بكلمة غريبة لم يفهمها أحمد.

- عفارم.

- !!!

وكان في الصف الرابع تلميذ بليد اسمه علي النجار، أخرجه الشيخ كي يجيب سؤالاً، فعجز عن الإجابة.

فوبخه الشيخ:

- هذا سؤال يستطيع ابن الصف الثاني أن يجيب عليه.

من يعرف الإجابة من طلاب الثاني؟

- أنا يا أستاذ، (رفع أحمد يده).

- اتعرف الإجابة يا أعرج؟

- نعم..
- طيب، أخرج وأعط الإجابة كي يفهم هذا «الحمار».
- ولما أجاب السؤال قال الشيخ:
- اشلع أذنه يا أعرج.
- حاضر..
- يحاول أحمد أن يقرص أذنه.
- يا أستاذ، لا أستطيع الوصول إلى أذنه، علي طويل.
- يا علي... اخفض ظهرك حالاً.
- طيب..
- وتمت العقوبة.
- وكان من عادة الشيخ -وقت الاستراحة- أن يجلس أمام الدكان الواقعة قبالة المدرسة، يتحدث مع محمد حسن، فقص عليه ما جرى بين أحمد وعلي، فقال محمد حسن:
- إذأ، ضعه في الصف الرابع.

- إنه صغير على الصف الرابع.
- أقول: ضعه وستزيد حصتك من القمح.
- ليس الأمر في الحصة.
- قلت لك ضعه في الرابع، وإلا فاني سوف أحكي لوالدي، وأنت لا ترد له طلباً.
- ماشي، توكلنا على الله.
- وهكذا صار أحمد فجأة أحد طلاب الصف الرابع، وكان نصيبه أن يجلس مع علي النجار في مقعد واحد.

الراديو

لم تكن في قرية اذنية المجاورة مدرسة، فكان صبيانها يأتون إلى مدرسة مغلس، وكان عددهم يقارب العشرة، وكان مختار قرية اذنية والد أحد الطلبة، حمله الواجب على دعوة المعلم وبعض الطلبة إلى طعام الغداء في بيته.

دلفوا بيت المختار وقدم لهم طعاما من البيض المقلي والسلطة واللبن المخيض، وبعد الانتهاء من الطعام قام المضيف إلى صندوق من الخشب في صدر البيت وحرك

حلقة بارزة فيه، وإذ به -يا للعجب- يهدر منه صوت عال فيه حشجة.

نظر الأولاد: أين المتكلم؟ لا أحد هناك، والصندوق لا يتسع أصلاً لكبير أو صغير؟

- إنه الراديو..

- أهذا هو، الذي نسمع عنه ولم نره من قبل؟

- نعم هو..

ولما كان أحمد يقص هذه الواقعة على مسامع الأولاد الذين لم يحضروا الغداء، كانوا بالكاد يصدقون، ويغبطونه على عظيم حظّه.

مدرسة تل الصافي

ينهي أحمد الصف الرابع في مدرسته بمغلس لينتقل بعدها مع زملائه لإتمام الدراسة في تل الصافي⁴⁸ وكان عددهم أربعة عشر طالبا.⁴⁹

في البداية كان لابد من امتحان الاجتياز ليثبت أهليته للصف الرابع، يجتاز أحمد وبعض ممن معه ويرفعون إلى المستوى الخامس، فيما يعاد نفر آخر إلى الصف الرابع بل أعيد بعضهم إلى الصف الثالث.

كان الذهاب إلى المدرسة مشيا على الأقدام، وأما أخوه داوود فلم يذهب لانشغاله مع والده.

استمر أحمد في هذه المدرسة سنة واحدة فقط، أتم فيها الصف الخامس، وبعدها كانت العطلة الصيفية التي وقعت النكبة في أثنائها.

48 كان مدير المدرسة عبد القادر زلوم من الخليل وكان مربي الصف راتب الشريف من الخليل، ومن المدرسين: خليل أبو بكر من الفلوجة، وإسماعيل حجازي من تل الصافي، و خليل حسن سمور مدرس اللغة الانكليزية من بيت جبريل، وعبد ربه الجيدة مدرس الرياضيات من تل الصافي
49 كان الطلبة هم: أحمد محمود، وعمر وأخيه محمد مصطفى، وعبد الرحمن نمر، وكامل محمود، وعبد الحميد حسين، ومحمد وأخيه أحمد عرب، ومحمود ياسين، و خليل وأخيه فخري محمد، وعثمان عيد، وأحمد طه

خميس البيض

هذا صباح آخر ربيعي بامتياز، فيه مناسبة يعشقها الصغار وينتظرونها من عام إلى عام وهي: «خميس البيض» من شهر نيسان الذي تليه الجمعة الطويلة حتى إنهم ليسمون هذا الشهر: «شهر الخميس».

الأمهات يسلقن البيض بكثرة، وبالألوان الزاهية يصبغ الأولاد مع أمهاتهم جدران البيض، ثم تنطلق مباريات التحمل... يتبارى الصبية فيمن يكسر بيضة الآخر، وبألوانها من فوزى.

أما في الجمعة الطويلة فكانوا يصبغون الخراف، وفيما ينطلق الصغار باللعب، كانت الأمهات يصنعن الحلويات، وأهمها البحتية.⁵⁰

كان موسم الخميس مهما في القرية، لأن المواسم الأخرى التي كانت منتشرة في فلسطين لم يكن يقام على

أرض مغلس منها شيء، مثل موسم النبي روين، وموسم النبي صالح، وموسم النبي موسى، وهذه مواسم كان يرتحل إليها بعض الكبار في مواعيدها، يحضرون الموالد ويعودون بأخبارها، ولم تسنح الفرصة لأحمد أن يحضر بعض هذه المواسم في طفولته في القرية.

التعليّة

لم يكن هذا النهار مميزاً فحسب بل كانت ليلته كذلك، فهذه أيام التعليّة، إذ كانت القرية تنهياً لعرس زفاف جديد، فقد كان من عاداتهم أن يجتمع الشباب للدبكة والسامر والمباريات قبل العرس بيومين أو ثلاثة.

كانت سهرة رائعة، أشعل فيها الشباب نارا عظيمة عند شجرة السدر العملاقة المسماة سدرة الجرن في شرقي البلد، يرقص الشباب في دبكتهم الفلسطينية المعروفة، فيما يعزف أحدهم على الطبل ويعزف آخر بالشّباب⁵¹، وكانت هذه أكثر ما عندهم من أدوات العزف، فإن القرية لم تعرف اليرغول⁵² والقرية.⁵³

شارك أحمد شباب القرية في الدبكة والغناء، ولكن هذا لم ليعجب الأب الشديد، ورآه عبثاً ورعونة وطيشاً.

51 الشّباب: المزمار

52 اليرغول: مزمار مكون من أكثر من قصبة

53 القرية: المزمار الاسكتلندي ذو الكيس المتعدد القصبات

يعود أحمد إلى البيت فيستقبله الأب بنظرات السخريّة:

- حلو جعيرك⁵⁴ يا بابا؟

- حلو ريفيسك يا بابا؟

لم يدر أحمد بم يجيب، لكنه أدرك أن هذا لم يعجب الوالد، فانسحب من قدامه، وقرر أن لا يعود إلى مشاركة الشباب في الأحفال، وأصلاً: لن تسنح له الفرصة لذلك، لقد كان هذا آخر حفل زفاف يقام في القرية قبل النكبة، وقد قضت حياة المخيمات على أي أنفاس وروح للفرح لسنين عدداً.

في يوم العرس كان الشباب يصطحبون العريس⁵⁵ إلى بئر البلد للاستحمام، فيقومون بتسخين الماء وتجهيز الملابس، وبعد الاغتسال يكسى الشاب بكسوة العرس، ويعطر، ثم يزف من البئر إلى ساحة البلد وسط الغناء والطبل والزمر.

وأما العروس فكانت تزين بالحناء، وتكسى بعباءة واسعة، وتحمل في هودجها فوق الجمل المجلل بقماش أبيض، ثم تزف فيما يعرف ب «زفه الفاردة» وكثيراً ما كانت تخرج

54 صوت البهائم

55 الأصل في اللغة أن العروس كلمة تطلق على الشاب والفتاة، ولكن جرت العادة أن تطلق للفتاة فقط، فيما يقال للشباب: العريس، أو المعرس

الفاردة من بيت أحد الأقارب أو الجيران الذي تحمله الأريحية على أن يعزم على أهلها أن تنطلق من بيته، أو يستوقف بعض الكرماء الموكب كله في دعوة للشاي أو الشراب.

تنطلق الفاردة إلى ساحة البلد، وهناك تقام أحفال أخرى يبدعها الشباب.

فقد يتسابق البعض فوق ظهور الخيل.

وقد ينصبون الشارة (حجر أبيض معلم يستخدم هدفا) ويضربون عليه بالأهداف.

ويسبق ذلك كله خروج الجاهة لطلب يد الفتاة، وفي تلك الأيام كانت جاهة الطلب حقيقية، وكانوا يتفاوضون على المهور حقيقة، لكنها تحولت إلى مظاهر شكلية مع الأيام.

وهناك عادات أخرى ظهرت في البلدات الفلسطينية وانتشرت القرى مثل عادة ثوب العم والخال، الذي يُهدى للعريس، وهذه أيضا تحولت إلى شكليات، فصار الثوب يعاد إلى مانحه في بعض الأحيان، وبخاصة أنه كان يطالب بارتدائه في المناسبات، ويلام إذا لم يفعل، فصارت ثقلا على

مقتنيه، وكان أكثر أثواب الرجال الكِبر (القميز) وللنساء الثوب المطرز بتشكيلات تختلف من منطقة لأخرى.

وإذا صادف أن كان العريس من بلدة أخرى فإن موكب الزفاف كان يبدأ من هذه القرية متجهاً إلى تلك القرية، ثم يلتقي الجميع في الوسط وتبدأ الاحتفالات، وكان هذا التقليد يعرف بـ «شالة الشباب» أو «شارة الشباب».

العيد

وأما الأعياد ورمضان فهي قصة فرح أخرى..

في أيامنا المعاصرة: عندما يقترب رمضان تزدحم الأسواق جدا بالباعة والمبتاعين، لكن الأمر كان مختلفا في مغلس وشببهاها من القرى، فإن المؤن كلها متوفرة بالفعل من الحليب والقمح والبرغل والتمر، وكان من عاداتهم أن يفطر الرجال معا في المضافة المركزية، والتي يسمونها «الحارة»، فكان رب كل أسرة يحضر من بيته طعام الإفطار، ويتشارك الكل مع الشباب والصبية المميزين ومعهم الضيوف.

كان للقرية حارة واحدة عند مسجد الشيخ منصور مكونة من غرفة واحدة تبرع بأرضها أحد مشايخ القرية وقام الأهالي ببنائها في زمن قياسي في عونة⁵⁶ مشهورة.

في ليالي رمضان يقوم المسحراتي، ويذكر الناس بالتسايح والنداء ويوقظهم للصلاة والسحور، وفي آخر أيام رمضان تستعد

العونة: حملة يتعاون فيها أكثر أهل الحي على بناء بيت لأحد أفراد القرية

النسوة للعيد بصنع الكعك والحلويات والمخمرات⁵⁷، أو كانوا يعدون القمح المقلي بالزيت، أو يعدون الحلويات، التي كان أشهرها كعك العجوة.

في يوم العيد ينطلق الناس بعد صلاة العيد يتبادلون التهاني ويسلمون على أقاربهم وذويهم، فيما ينطلق الأولاد في كل مكان يلعبون ويمرحون.

وكانهم كانوا في حبس!!!

كانت زياره القبور في الأعياد من العادات الثابتة، يأخذ الناس معهم كعك المخمرات إلى المقابر، ويوزعونه صدقة عن أرواح الموتى على الوافدين، وعلى كل من يصادفون في طريقهم.

كانت المقبرة في الجهة الشرقية الشمالية من القرية، وهي مسورة بأشجار الصبر، ولم تكن القبور فيها بارزة، بل كان أكثرها مسوى بالأرض.

كان أحمد يعرف مكان قبر أخيه الرضيع محمد، وقبر عمه عبد الرحمن الذي مات شابا، وقد دفن جده لأمه في نفس القبر، ثم أضيف إلى ترابها أخيرا قبر أمه.

المخمرات: خبز مخمر بزيت الزيتون من القمح الصافي الذي لا تشوبه الذرة

بعد النكبة لم تعد هناك مقبرة، فقد كان مصيرها
التجريف، شأنها شأن بيوت القرية ومعالمها.

كان الموت حادثا جللا في قرية صغيرة كهذه تتوقف
لأجله الحياة، حتى إنهم ليرسلون الرسائل إلى المزارعين في
الحقول والحواكير بالعودة.

وكان من عاداتهم أن تقدم العشيرة الأخرى لعشيرة الفقيد
طعام الغداء أو العشاء.

ولكن هذه العادة تقلصت بعد النكبة وانحصرت داخل
العشيرة الواحدة بسبب تفرق الناس وضيق الحال وقلة الأماكن
الجامعة، ثم تقلصت أكثر حتى غدت في البيت الواحد،
وصار نادرا أن تعزم عشيرة على عشيرة المصاب، إلا ما كان
من خبر أهالي مغلس في مخيم حوض البقعة بالأردن، فلا
زال شائعا أن تصنع عشيرة طعام العزاء لعشيرته الفقيد.

كان عيد الأضحى جميلا ومميزا كعيد الفطر، وكانوا
يسمون «العيد الكبير»، فما يطلقون على عيد الفطر «العيد
الصغير».

في عيد الأضحى لا بد من تناول اللحم لارتباط العيد

بالأضحية، بالإضافة إلى الحلويات المنزلية الصنع، وأما العائدون من الحج فقد كانت تقام لهم استقبالات خاصة، وهذه عادة موجودة في كل فلسطين وفي معظم أرجاء العالم العربي والإسلامي، ولهذا الأمر طقوس، نظرا لطول رحلة الحج وخطورتها في تلك الأيام، ومن طقوسها تزيين مداخل البيت بسعف النخيل.

لكن أحمد لا يعلم أن أحدا من أهل القرية جهز نفسه خصيصا للحج، وذلك بسبب تكلفه الحج المرتفعة التي كانت أكثر من قدرة القرويين، وقد كان أكثر الحجاج من قريتهم ممن خدموا في العسكرية مع الجيش العثماني فصادف أن كانت خدمتهم قريبة من مكة.

يافا

لم يكن بالقرية طبيب أو عياده، ولذلك: فعندما يمرض أحد الأهالي مرضا يزيد عن معرفة حلاق القرية أو إمكاناته، فإنهم كانوا يذهبون به إلى مستعمرة كفار مناحيم المجاورة، وفيها عيادة تعالج من السخونة، ورمد العين وغيرها من الأمراض البسيطة، فاذا زاد الأمر عن ذلك كانوا يذهبون بالمريض إلى المستشفى الفرنسي في يافا، أو إلى مستعمرة عيون قارة قرب يافا، أو إلى أي عيادة خاصة من عيادات يافا، وفي بعض الأحيان اختار ناس من أهل القرية الذهاب إلى عيادة السروجي في بيت الجمال في قضاء القدس.

انتشر مرض التيفوئيد في البلد مع انتشاره في عموم المنطقة، وأصيب به جمع من أهل القرية، منهم من أدركته الوفاة، مثل خالته سارة التي توفيت عروسا متزوجة حديثا (والحنة على يديها)، وكذلك محمود أحمد ابراهيم من الصرابطة، وأصاب المرض أخاه الأكبر داود، واشتد عليه

المرض فاحتمله والده إلى يافا، وطالت غيبته، وزاد مرضه
حتى أوشك على الهلاك، وفي النهاية نجا منه بأعجوبة
وكان أبوه يعود في يافا، وفي إحدى المرات يأخذ معه
أحمد.

كانت هذه أول مرة يرى أحمد فيها يافا.
مدينة جميلة، أحبها، وأورث حبها لأبنائه، وكان معجبا
بقصيدة محمد مهدي الجواهري التي ارتجلها يوم حط ركابه
في يافا.

يافا يوم حط بها الركاب
تَمَطَّرَ عارض ودجا سحاب
وقفت موزع النظرات فيها
لطرفي في مغانيتها انسياب
وموج البحر يغسل اخمصها
وبالأنواء تغتسل القباب
وبياراتها ضربت نطقا
يخططها كما رسم الكتاب

وكانت المرة الثانية عندما مرض أخوه محمد.

يتذكر أنه ركب الباص بصحبة أمه، وجلس في أحد المقاعد، وشاهد شيئا عجيبا: السائق متوجه بنظره تماما إلى جهة الركاب، ولا يتطلع إلى الطريق.

عجيب، إذا كيف يقدر أن يسوق؟ وكيف يعرف الطريق.

يهمس هذا في أذن أمه.

- هذه مرآة الباص.

- ماذا يعني ذلك.

- السائق ينظر إلى الطريق طبعاً، لكن المرآة تعكس وجهه إلينا.

- هممممم...

استغرق وقتاً حتى استوعب واقتنع.

وأما الزيارة الثالثة إلى يافا فكانت لعيادة أمه، بعد أن مرضت مرضاً شديداً عقب أن أنجبت فاطمة آخر أولادها.

يأخذ أبو داود زوجته المريضة وأولاده، ومعهم شقيقة

زوجته ويسير بهم إلى يافا، وكان مقصدهم عيادة الطبيب
«حمدي التاجي الفاروقي».

يتذكر أحمد ملامح العيادة والطبيب، لكنه بالطبع لم
يكن يفهم شيئا عن ماهية المرض وخطورته، ولا يذكر جيدا
تداعيات هذا المرض عليها، ولكنهم في النهاية يعودون
أدراجهم إلى الريف.

ويبدو أن المرض اشتد أكثر على الأم فاحتاج الأمر إلى
زياره أخرى.

يحمل الرجل عائلته وينطلق نحو ذات العيادة في يافا.
هذه المرة كان أحمد اشد وعيا من المرة الماضية،
فمعالم الطريق محفورة في ذهنه كنقش على رخام.
هنا بيت قديم من الحجر على تله مرتفعة.

هنا طريق مشجر فيه أعمدة الإنارة والكهرباء.
وهذا الشارع التجاري الذي فيه عياده الطبيب.

يبحث الوالد عن العيادة في شوارع المدينة، لكنه
تاه عنها، فيحاول تذكر شكل البناية والمدخل فلا تسعفه

الذاكرة، ويسيح في الشوارع المحيطة، وهنا يتدخل الصبي
النيه ويصيح:

- هناك هناك

- ماذا ترى يا أحمد

- اللوحة.... مكتوب عليها: «حمدي التاجي الفاروقي».

في هذه الزيارة سيشاهد البحر لأول مرة، وستتاح للعائلة
الفرصة لتناول الطعام على الشاطئ.

كان أحمد مسرورا، ولم يكن يدرك كثيرا جبل الهموم
الذي يعصف بوالده المسن.

الزوجة مريضة جدا، وحالها لا يزداد إلا سوءاً.

عندما يعود الراكب إلى القرية لن تمكث الأم طويلاً، إذ
كانت - ولحكمة عند الله - قرية جداً من لقاء ربها.

الأراضي

كان سهم أبي داوود من الأراضي المفتوحة يبلغ نحو من ثمانين دونما من أصل 400 دونم هي ما تركه الجد لأبنائه الخمسة محمود و خليل ومصطفى ويوسف وعبد الرحمن، وهذا بخلاف الحواكير المسورة بالصبر أو السناسل، والمزرعة تينا وزيتونا في أشجارها وخضروات وبقوليات في أرضها.

وكان أهم حواكيرهم، الشامية، والقبلية، والتعميرة، والجس.

التين والزيتون هما الشجرتان الأساسيتان في مغلّس، وأما الخضروات والمقاثي فكان منها الكوسا، والخيار، والبندورة، والفقوس، والبامية، والفاصولياء، ولم يكن هناك بيوت بلاستيكية، فكانوا يجففون خضار الصيف للإفادة منها في الشتاء، وبخلاف الحواكير والأراضي المفتوحة كان هناك أراض صخرية تسمى «ظهرات» غير معدودة في الأسهم.

وأما المساحات التي ما بين القرى فقد كانت تنتشر فيها

الغابات الحرجية بأشجارها التي تتنوع ما بين السرو والصنوبر والجميز والخروب، وتغطي مساحات شاسعة بين عمورية وعجور ومغلس.

وفي مغلس كانت شجرة الخروب رئيسية، فهي ظل وحطب وطعام للدواب.

الدواب

كانوا يستخدمون الدواب لحراثة الأرض باستخدام زوجين من الثيران يخصصان للفلاحة، يسميان «جوز»⁵⁸ العمالات» فيوضع النير على رأس كل واحد منهما لجر السكك وحراثة الأرض، وأحيانا يستخدمون الجمل، أما التراكثورات الزراعية فلم تدخل البلد إلا نادرا، وكانوا عند حاجتها يستأجرون واحدا من تل الصافي، أما في كبايه كفار منحيم فكانوا يزرعون بالطرق الحديثة من تراكثورات وتقوى ومبيدات.

يتجهز أبو داود لحراثة الأرض، فيستدعي أولاده للذهاب إلى بيت النجار إسماعيل لإحضار عود المحراث وبعده إلى الحداد الهنوك لإحضار سكة المحراث.

- النجار إسماعيل أولا يا داود، ثم الحداد الهنوك.

- لماذا ؟

- حتى لا تأخذ السكة معك طوال الطريق على بيت
النجار أيها الفصيح.

يذهب الغلامان إلى منجرة النجار إسماعيل المقامة
داخل بيته، هذا البيت الذي ابتناه له أهل القرية بالعونة، إذ أن
إسماعيل لم يكن بالأساس من أهل القرية وإنما قدم للعمل
بها، ولكثرة حاجة أهل القرية لأعماله فقد قرروا مساعدته
على الاستقرار في البلدة.

في باحة البيت يجد الأولاد النجار يعمل بهمة عالية مع
أدواته وعدده الكاملة.

كميات من الأخشاب....

مناشير وأزاميل متنوعه....

مسحاة ومسامير وصمغ...إلخ.

كان إسماعيل فنانا ماهرا كما يصفه الناس، يتقن صناعة
كافة الأعمال الخشبية، وكان أحمد معجبا به حتى أنه صarach
أخاه:

- أريد أن أصبح نجاراً.

بعد المنجرة يتوجه الصبيان نحو خرايش النور⁵⁹ المقامة على أطراف القرية، وكان النور يعملون في بعض المهن من أبرزها الحدادة، وكان أشهرهم الحداد (أبو نزهة) الذي كان يتحرك بين مغلس والبريج.

يتجول الأولاد بين خرايش النور يعجبون لنمط حياتهم ولباسهم وطريقه كلامهم، وكأنّ بينهم وبين التمدّن ممانعة مركوزة في جيناتهم.

لم يكن الحداد الهنوك واحداً من النور، وإنما كان مقيماً قريباً منهم، والهنوك له قصة يعرفها أهل القرية جيداً، فبالإضافة إلى كونه حداداً ماهراً يصنع سكك المحراث وخذوات الخيل وباقي المشغولات الحديدية إلا أنه كان معدوداً في المجاهدين، يحمل شهادتهم وجراتهم، وقد أصيب إصابة بالغة في معركة وادي الصرار واضطر الطبيب على إثرها لبتن ساقه، وقد قضى بقية حياته في (مادبا) بالأردن لا يفتأ يذكر مغلس.

هكذا كانت المهن في القرية، بساطة شديدة، بل إن

القرية لم يكن بها خياط ولا مبيّض نحاس، فقد كان الخياطون في عجور، وأما تبييض النحاس فقد كان يقوم به عامل يأتي من مصر يدور على البلدات لهذا الغرض.

يأخذ الصبية الأدوات ويعودان إلى والدهما الذي يقوم بفلاحة الأرض بمعاونة أبنائه وأبناء أشقائه، وقد كان الأولاد يومها هم عدة الفلاح للحرث والبذر والحصاد، وكانت القوه مع الكثرة.

ويقع أحيانا أن يكون عدد الأبناء زائدا عن حاجة العمل في الأرض، فكان الفلاح يرسل أولاده للعمل في المدن والقرى المجاورة، وكان أقرب مكان يذهبون إليه هو (كامب وادي الصرار) وهو مخيم انكليزي كان يحتاج إلى اليد العاملة، فكان بعض شباب القرية يذهبون للعمل فيه.

تزهّر الأرض وتخضر، ويحين موعد الحصاد من العام 1946، وكان موسماً طيباً.

يحصد جميع أعمامه أراضيههم إلا والده، الذي داهمه قبل الموسم بقليل مرض حاد اضطر على إثره للانتقال إلى المستشفى الفرنسي في يافا، وطال مرضه، وخشي الناس على الزرع أن يتلف، وصاح صائحهم (أبو كامل) بعد أن جمع أبناء عمومته:

- يا أولاد عمي، أبو داهود في المستشفى، وزرعاته راح
تاكلها الدواب.

أشار الناس بالبنان إلى الشابين محمود ومصطفى أبناء
إبراهيم حسن.

- هل تذهبا لحصاد الأرض؟

- طيب، إن لنا لأجراً؟

- نعم، أجركم هو وعاء كامل من فتة الحليب، قالها
أبو كامل.

- على بركة الله.

تبدأ حفلة الحصاد مع غياب الشمس، وتستمر طوال
الليل لتنتهي مع شروق شمس اليوم التالي وقد حصد الشaban
وحدهما ثمانين دونما من الزرع، ولا غرو، فقد اشتها بأيديهم
التي تحصد كما المكائن.

وطبعا فإن الأعمال لا تنتهي بالحصاد، فهناك التذرية،
واستخراج الحب وتجميعه وتخزينه، وربط القش وترصيصه،
ثم طحن القمح دقيقا، وقد كان هناك ثلاثة بواير للطحن في

المنطقة لم يكن في مجلس واحدة: الأولى في البريج، والثانية في تل الصافي، والثالث في عجور، وكان أكثر ما يطحنون في تل الصافي تجنبا لزعران⁶⁰ الشوارع ومشاكلهم على طريق عجور، وأما درس الزيتون فكان لا بد من عجور ففيها وحدها المعصرة.

وبخلاف الحبوب والخضروات فقد كانوا يزرعون نوعين من الدخان: الهيشة (المارديني) والشامي، وكانوا ينشرون أوراق الدخان على حبال الغسيل لتجف ثم يستعملونها، أو يبيعونها لتاجر التبغ «عبد القادر الحوساني» الذي يقدم من حوسان خصيصا له.

ولفترة ما كانت زراعة التبغ ممنوعة بأمر الحاكم الانكليزي احتكارا له، وكانوا يقومون بجولات تفتيشية وحملات دهم، ووقع مرة أن داهموا بيت أبي داوود الذي كان مدخنا ويحتفظ بكميات منه، لكن أم داوود تداركت الأمر وأسعفها الوقت أن تدس الدخان في التبن.

سواليف الحصيدة في جليا

تقع جليا شمال غرب مغلس، ومعظم أراضيها كانت مملوكة للحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين، وكان لبعض أهالي مغلس أراض بها، فكان أبو داود يتوجه لحصادها، ثم يأخذ الزرع إلى الدرس في ذات القرية، قبل أن يعود به إلى مغلس، ولذلك كثر قدومهم ومكثهم في جليا، ومعها تكثر «سواليف الحصيدة».

وفي إحدى المرات يخرج أحمد مع والده، وبينما هم جلوس في ظل شجرة أثل في جماعة من الرجال وبعض الغلمان، يطلع غلام من أترابه مناديا:

- مين يياطح؟

مين يياطح؟

- أخرج له يا أحمد (قالها عمه مصطفى).

ينظر أحمد، فبدا له الغلام أقوى وأوسع حجما، فيتردد ويحجم.

- قم وإلا... (صاح به والده).

يشتبك الغلامان، ويحاول صاحب الدعوة أن يقلب صاحبه، فيشد، ويهز، ويشد، ويهز، ولكنه يفشل، كل هذا وأحمد لم يحاول، يتشجع أخيراً، ويهزه، فيقلبه، ويطرحه أرضاً.

- لا، لا، لا، لا، غير محسوبة، هذه بطحة كلاب، (قالها حسني ظاظا والد الصبي).

- لا بأس، نعيد الكرة.

ويعود الغلامان، ويعيد أحمد الكرة.

- محسوبة، معلش (يعترف حسني ظاظا بهزيمة ولده).

وصار بعدها الغلامان من أعز الأصدقاء.

سواليف أبو سليمان

كان يأتي بعض أهالي جلياً للسمر والسهر عندهم في البيدر، ومن أولئك الأشخاص رجل قصير القامة خفيف الظل حلو الحديث صاحب نكتة اسمه: أبو سليمان، كان قد التحق بالجيش التركي في سوريا فتزوج امرأة سورية، ولما

انتهت مدة خدمته عزم على الرجوع إلى قريته، فطلب من زوجته الرحيل معه، فرفضت قائلة له:

- أروح معك ليش؟ أنا ماخذتك على طول قامتك؟،
والا على وجهك مثل وجه القرد؟

وحدث مرة أن جاء إلى جلياً رجل نصراني وأعلن إسلامه،
فاحتفل به أهالي جلياً، وصاروا يقدمون له الطعام والشراب
والفراش بالتناوب فيما بينهم، ولأن الطقس كان صيفياً، فقد
كان أكثر الرجال ينامون في البيادر في العراء.

وجاء الدور يوماً على أبي سليمان لإكرام النصراني فأحضر
له الطعام والفراش واستلقى نائماً، ويبدو أنه تكشف أثناء النوم
فأصابه البرد وأصيب بالإسهال فأحدث كثيراً في ثيابه، وجاء
أبو سليمان في الصباح ليأخذ الفرash، ولما رأى القذارة جن
جنونه، فأمسكه من يده وسحبه مبعداً به عن المكان وقال
له:

- يا لعين الوالدين، انقلع من هون، والله إذا شفتك في
أطراف جلياً لألعن ديننك: القديم والجديد.

ولما كان أبو سليمان يرويها بطريقته الفريدة كان الرجال

يضحكون حتى تنهمر دموعهم.

بعد الانتهاء من درس الزرع في جليا عباً أبو داود الحبوب
في أكياس وعباً التبن والقصل في الجوالق، ثم قال لابنه.

- ستنام باكراً يا أحمد، وسأنبهك في الغد لتذهب إلى
القرية وتحضر الجمل لنقل الحبوب والتبن.

- حاضر يا أبي.

وفعلاً يوقظ الرجل ولده.

- هيا قم..

- الظلام دامس يا أبي.

- ستطلع الشمس عما قليل.

كان أحمد في نحو الثامنة من عمره، وخجل أن يصرح
لوالده بشعور الخوف في هذه العتمة، فركب الحمار، ولم
يفطن أن يرفع المخلاة⁶¹ إلى رقبة الحمار.

تحرك خائفاً في الظلام الكثيف، وكان يتوقع أن يهاجمه

61 المخلاة: رقعة من الملابس تجعل وعاء للعلف، وتوضع في رقبة الدابة، فمنها يأكل، ومنعها هذا أن تعيث في المحصول فتفسده

الضبيع أو أن يخرج لي (القتيل) من العُرقان⁶²، وكانوا يقولون أن الضبيع تخرج من العرقان وتلتهم العابرين.

لم يهدأ خوفه حتى وصل الطريق الرئيسي الذي يربط مغلس بقزاة ثم الرملية، وهناك لاقاه مجموعة من شباب القرية ذاهبين للعمل في كامب وادي الصرار فسألوه:

- من أين أنت قادم يا أعرج؟

- من جلييا.

- جلييا،؟ في هذا الوقت المبكر؟

- نعم.

- إذا متى خرجت؟

- خرجت، هذا المهم.

- أنظر: المخلاة في رقبة الحمار، ارفعها فلا فائدة بها
مرسلة.

يرفع المخلاة، ويواصل طريقه، ولما أشرف على القرية ورأى البيوت زال عنه الهلع، وطفق يغني بأعلى صوته، ولما دخل الدار ورأته أمه، صكت وجهها وصاحت:

62 العُرقان: العروق، وهي مجموعة من الكهوف على جانب الطريق

- من جلياً.

من جلياً.. كل هذه المسافة؟ وفي الليل؟

يا ويلي، ماذا فعل بك والدك؟

- أبي يريد الجمل، ينقل عليه المحصول.

- حسناً، سأطلبه من عمك خليل.

كان أبو داوود قد باع الجمل السابق إثر حادثة فقد فيها أعصابه، وشارت تائرتة ضد الجمل، فعقله، وأوسعه ضرباً، فيهرع إليه أخوه خليل.

- توقف أرجوك.

- ليس قبل أن أقتل هذا الجمل.

- وماذا فعل حتى يستحق العقاب.

- انظر، لقد حك الجمل ظهره في شجرة الزيتون هذه فقلعها، إنها أحسن الأشجار، وأجودهن ثمراً وزيتاً.

- يجب أن تبيع الجمل فوراً يا أبو داوود، فهو حيوان حقود لا ينسى من آذاه، وسينتهاز أول فرصة للانتقام.

- نعم سأبيعه.

- لا، بل أنا سأبيعه لك.

يعود أحمد إلى جليا بجمل عمه خليل، وبمجرد أن يلمحه والده يستشيط غضبا، ويسحبه عن ظهر الجمل ويطرحه أرضا ويشرع في ضربه بالعصا.

- ما جنيت يا أبي؟

- أين الشبكة؟ وماذا أفعل بالجمل دون الشبكة؟

- أي شبكة، لم تطلب مني شيئا كهذا.

ولكن الشيخ يتوقف فجأة بعد أن شاهد الدم يسيل من فخذ الصبي، لقد جرحه السلك وهو يسحبه عن ظهر الجمل.

ينزوي الشيخ جانبا، ويندم على تسرعه، ويكي بصمت، فيما يشفق عليه ابنه، وهو يقول مشفقا على نفسه أيضا.

- ومن أين لي أن أعلم بالشبكة، فلا والدي قال له، ولا أُمي تنبّهت لذلك، ولا عمي من بعدهم.

شهر الأحزان

في عام 1945 يتوفى جده الحاج حسن -والد أمه- عن مائة عام، ولم يبق من أجداده إلا أم أبيه، وبعد وفاة جده بخمسة أيام، توفيت أمه بعد معاناة مع المرض دامت ثلاث سنوات، بقيت نصف هذه المدة طريحة الفراش لا تستطيع قياما ولا جلوسا وكانت شقيقاتها يتناوبن على خدمتها ونظافتها، وبقيت على تلك الحالة حتى قبضها الله إليه.

يصحوا الأطفال على صراخ خالتهم (رابعة).

- مريم ماتت.

وتدب الفوضى في البيت ويتجمع الناس.

ولما حملوها على النعش وخرجوا بها من الدار أحس كأن قلبه قد انخلع من مكانه فتبعهم وصعد على سطح بيت قرب المقبرة وشاهدتهم وهم يهيلون التراب عليها وهو يبكي بحرقه.

بعد وفاة أمه طلبت الجدة من أبيه أن يدع الأولاد يبيتون عندها.

- أنت رجل مشغول، تعود آخر النهار من العمل في الحقول، وهؤلاء صغار، وأخشى أن يتكشفوا، دعهم يبيتون عندي.

- لا بأس..

وأراد أعمامهم تزويج أبيهم وذكروا له أرملة من قرية (اذنبه) فرفض، ولما ألحوا عليه قال لهم:

- اسمعوا ما أقول: أنا رجل جاوزت السبعين من عمري، وتزوجت ثلاث نساء، ولم أرزق إلا بهذين الغلامين، هل تريدون أن أحضر لهم زوجة أب تهنينهم وتؤذيهم؟

- وهل ستبقى بلا زوجة؟

- أعلم ما تريدون... الأرض.

تريدون أن أبيع لكم الأرض، وأصرف مالي كله على زواج جديد، فلا يبقى لأولادي إرث، وأذرهم عائلة يتكففون الناس، أو يعملوا أجراء عند أولادكم؟

والله لا يكون هذا أبدا.

النكسة

استمر أحمد يعمل عامل بناء في مشاريع إنشاء الطرق في شرق الأردن، وعاد مرات ومرات ليعمل في طرق معان - العقبة، وطريق عمان - المفرق، وكان يرجع إلى مخيم العروب بين الفينة والأخرى.

وفي إحدى رجعاته يقابله علياً ابن عمه خليل، فيحدثه عن خبر معلن لتجنيد أفراد في سلك الشرطة.

- هل تأتي معي يا أحمد؟

- ما هي الخطوة الأولى.

- تسجيل الأسماء في سجل الراغبين.

- متى؟

- غداً صباحاً..

- وأين المكان؟

- في قياده الشرطة بالخليل.

- حسنا، أنا ذاهب معك.

يتوجه الشابان إلى مركز قياده الشرطة ضمن مجموعة كبيرة من الشباب، وقاما بتسجيل اسميهما، فقادهما ذلك إلى الفحص البدني والطبي.

كانت نتيجة الفحص إيجابية، فاستلم كل منهما كتابا إلى مدرسة الشرطة في منطقة العبدلي في عمان، فغادرا إليها، وبعد الفحص والإجراءات تمت الموافقة عليهما، وبهذا دخل الشابان في سلك الشرطة.

وكانت البداية دورة تدريبية استمرت ثلاثة أشهر، وفي مرحلة التدريب يتزوج أخوه داوود.

يتنقل في خدمته ما بين شرطة العاصمة، وشرطة الرصيفة، ومخفر مطار عمان المدني في ماركا، ثم استقر به الأمر أخيرا في شرطة نابلس، وذلك قبل أن تقع النكسة.

يتزوج أحمد من زوجته الوحيدة (صفاء) والتي سيبقى بجوارها حتى آخر يوم في حياته، ويرزق بأولى بناته: سوسن، وفيما كانت زوجته حاملا بابنته الثانية، يصله خبر رحيل

والده عن هذه الدنيا في العام 1964 ويشيع إلى مثواه في يوم جمعة، بعد أن صلى عليه خلق كثير في الحرم الإبراهيمي. وفي عام 1966 يجري نقله للخدمة في مدينه نابلس، وهناك يولد له ابنه الأول «محمد وائل» وسيكنى بعدها (أبو وائل).

في نابلس: سيتعرف أبو وائل على البلدة بأحيائها القديمة والجديدة، وسيتعرف على الطرق الداخلة إلى نابلس والخارجة منها وسيكون مسؤول سيارة للنجدة تتحرك ليلا ونهارا في أزقه المدينة.

وكان يقود السيارة السائق العسكري: إسماعيل العزة. إلى أن يأتي يوم الخامس من حزيران، أول يوم في حرب الأيام الستة.

اليوم الأول - الاثنين 1967/6/5

في صبيحة هذا اليوم يسمع الناس بالهجوم الإسرائيلي المباغت على مصر والدول العربية، وتنطلق الحناجر في الإذاعات العربية بالتهديد والوعيد، فاشتعلت آمال الناس بالنصر والوصول إلى يافا وحيفا قبل انقضاء النهار، وبخاصة

مع عنتریات أحمد سعید التي ذکر فیها أنهم أسقطوا عشرات الطائرات اليهودية.

اليوم الثاني - الثلاثاء 1967/6/6

يتلقى أبو وائل أمرا بفتح الطريق أمام سيارات الإمداد المتوجهة إلى مدينة قلقيلية عبر الطريق الذي يخترق نابلس من وسطها فيتحرك بحماس بالغ لفتح الطريق، ويصرخ فيمن يتلكأ من الناس، بل إنه كان يشتم من يتأخر.

- افسح الطريق يا حيوان.

وبعد فتح الطريق، يقف أبو وائل ينتظر قدوم هذه القافلة، فلما رآها أصيب بصدمة، وكأن أحدهم صب ماء باردا على رأسه، لقد كانت القافلة مكونة من ثلاث سيارات فقط، الأولى تجر مدفعا، والثانية فيها الوقود، والثالثة تحمل بعض الجنود.

بعد الظهر بدأت الأخبار تتوالى عن انتصارات كاسحة لليهود، في تناقض واضح مع ما تبشه الإذاعات العربية.

وفي المساء، وصله الخبر المؤكد أن مدينه جنين قد سقطت.

اليوم الثالث - الأربعاء 1967/6/7

الناس في حاله ارتباك وذهول، ولا يدري أحد ما هو حقيقة الموقف.

يرد تعميم إلى مرتب الشرطة أن محافظ نابلس (أحمد الهنداوي) سيلقي محاضرة في قيادة شرطة نابلس، فيجتمع هناك خلق كثير.

يتحدث المحافظ:

- يا شباب: لقد طلبنا غطاء عسكريا وإمدادات، لكنها لم تأت، فمن يستطيع منكم أن يؤمن نفسه: فليفعل.

يفهم أبو وائل مقصود الكلام بأنه رخصه للجلاء، فيسرع إلى السائق إسماعيل.

- هل سمعت الأخبار يا إسماعيل؟

- نعم..

- هيا نتحرك نحو أريحا، نبيت الليلة فيها، فإذا ما سقطت نابلس، عبرنا النهر نحو شرقي الأردن.

- كلا يا أبو وائل، هذه السيارة عهدة عندي.

- ألم تقل إنك سمعت الأخبار.
- لا شيء مؤكدا، ولن أغامر.
- ما العمل؟ الأحداث تتسارع والوقت ضيق جدا، يقرر أبو وائل أن يتحرك فوراً لاستشارة بعض زملائه، وفي الطريق يقابله زميله حسن محمد القدومي مسرعاً.
- إلى أين الوجهة يا حسن؟
- إلى جيوس، لقد دخل اليهود مخيم عسكري؟
- اليهود في المخيم؟ إذا صاروا على أبواب نابلس؟ هل أنت متأكد يا حسن؟
- بكل تأكيد، أنا قادم من هناك للتو.
- هل هذا معناه أيضاً أن الطريق الرئيسي بين عمان ونابلس صار مقطوعاً؟
- طبعاً يا أبو وائل.
- يركض أبو وائل نحو السائق العزة ويطلعه على الخبر، ويوبخه.

- اليهود الآن في مخيم عسكري، ساعات وسيكونون في نابلس.

- يا للهول، وماذا نفعل يا أبو وائل؟ ما رأيك أن نتوجه نحو طريق القدس؟

- سنصطدم باليهود في منطقة اللّبن؟

- معك حق، لا أعرف ماذا نفعل.

- عندي الحل يا إسماعيل، نتوجه شرقاً، باتجاه الساحة التي تدربنا فيها على الرماية.

- لا توجد طريق من هناك إلى أريحا.

- بل يوجد طريق ترابية ضيقة تهبط إلى أريحا، وحيثما وقفت بنا السيارة عاجزة، نكمل السير على الأقدام.

أدرك السائق العزة أن الأمر صار منفلتاً، والخطر وشيكاً فيمضي معه في خطته.

- على بركة الله..

- بسرعة، اركب.

وينطلق الرجلان إلى المكان المحدد، وفي طريقهما يصعد معهما آخرون من زملائهم، كان منهم الملازم (عصام).

تحركت السيارة حتى تجاوزت قرية عقربا عن يمينهم، إلى أن انتهت الطريق المعبدة، وشرعوا في الطريق الترابية.

شاهد أبو وائل طائرة على ارتفاع عال ثم شاهد جانبه رتلا من سيارات الجيش العربي فقال للسائق:

- هذه آلات الجيش منسحبة من المعركة، تعود إلى شرق النهر.

- إنهم في نفس طريقنا..

- هذا الرتل عرضة للقصف، ومن الخطر الشديد أن نكون قريبين منه.

- وما العمل؟

- إما أن نسبقهم بكيلومتر، أو نتأخر عنهم بكيلومتر.

كان الرتل بطيئا، فتجاوزوه، وأخيرا وصلوا إلى غور فصايل.

- يوجد هنا معسكر للجيش العربي.

- انظر، لقد تم تدميره، لقد تعرض للقصف أيضاً.
- دمروا المعسكر وحرقوا من فيه.
- ينظر الملائم عصام إلى السماء فيشاهد طائرة حربية
يهودية، فيصيح.
- هناك، بالأعلى، طائرة مغيرة، ستقصف السيارة.
- يقفز عصام من السيارة مسرعا، لكنه يسقط أرضا.
- آآآه، يدي، يدي.
- لقد كسرت يده.
- هيا بنا نربطها بسرعة إلى رقبتة، ونعاود التحرك، يجب
أن نغذ السير، الوقت ينفد.
- تابعت السيارة الحركة حتى وصلوا أريحا.
- توجه الرجال إلى قيادة شرطة أريحا لشرب الماء، فوجدوا
المخفر مهجورا، وليس به ماء، فأكملوا المسير حتى وصلوا
وسط أريحا وقد بلغ منهم العطش كل مبلغ، فلجأوا إلى أول
مقهى صادفهم في الطريق فشربوا منه وارتووا، وهنا: تركهم

السائق إسماعيل.

- سأذهب لإحضار زوجتي من مخيم عقبة جبر.

- هل ستعود يا إسماعيل.

- طبعاً..

أقسم أبو وائل في نفسه أن إسماعيل لن يرجع، فلم يعول على عودته.

تفرق الذين كانوا في السيارة ولم يبق معه إلا الملازم عصام بسبب يده المكسورة، ثم تدافعا مع الفارين باحثين عن وسيلة تنقلهم شرقي النهر.

كانت أرتال السيارات العسكرية المنسحبة من القدس والخليل تعد ولا تحصى، كان أغلبها من الجيش العراقي وبعضها للجيش الأردني، ولم يرغب أن يستوقف أياً منها للركوب، خوفاً أن تقصفها الطائرات الإسرائيلية، وقد حصل ما توقعه حرفياً.

لذا حرص أن يركب سيارة مدنية، فلما صادفه قلاب نحاة (شاحنة رمل) أوقفه، وكان محملاً عن آخره بالنازحين:

- أذهب أنت إلى شرقي النهر؟
- نعم.
- احملنا معك.
- أنت ترى بأمر عينك، الشاحنة ملأى عن آخرها، إذا وجدت لك متسعا، فافعل.
- أنا سأندبر أمري، المهم أن نجد مكانا مناسباً لهذا الضابط، يده مكسورة.
- تمكن أبو وائل من توفير موقف مناسب للضابط الكسير اليد، وتشبث هو مع الباقيين بهيكل الشاحنة حتى عبروا نهر الأردن.
- وهنا تقع الصدمة الهائلة.
- بمجرد عبورهم للجسر يسمع الجميع دوي انفجار هائل.
- لقد نسف الجسر.
- ينظر الكل نحو الدخان المتصاعد بذهول، كانوا على مبعدة دقائق فقط.

تتهادى الشاحنة في منطقة غور نمرين القريبة من الجسر،
ويشاهدون آثار القصف في الجانب الأردني.

بيوت مهدامة، وسيارات عسكرية قد طالها القصف
وبداخلها جثث محترقة متفحمة لا زال الدخان ينبعث منها،
والرائحة تزكم الأنوف، وجثث أخرى ملقاة على قارعة الطريق،
وبقايا حرائق في المزارع قريبة عهد بالنار.

استمرت الشاحنة صاعدة حتى وصلت مدينة عمان،
وأفاض الناس كل إلى وجهته فيما نزل هو على تقاطع رأس
العين- الوحدات، وأكمل طريقه إلى بيته في جبل النظيف
مشياً على الأقدام.

حتى هذه اللحظة كان متماسكاً.

ولكنه بمجرد دخوله البيت يلقي قفاه على الفراش ويغرس
وجهه بين كفيه، وينفجر باكياً.



انتهت العمليات العسكرية سريعاً على الجبهات في
حرب النكسة، والتي أقسم بعضهم أنها مجرد (مسافة
السكة)، وهي أليق أن تدعى «النكبة الثانية» تلك التي قال

فيها موشيه دايان:

- «إن ما حدث يفوق أكثر أحلامي جنونا».

لم يعد بمقدوره الذهاب إلى مخيم العروب ، وسيكون هذا النزوح الأخير ولن يرى فلسطين بعدها حتى آخر حياته. تدور الأيام سريعا وتشتعل الثورة الفلسطينية، وتقع معركة الكرامة التي أنزلت بالعدو خسارة فادحة مدوية أعادت الأمل إلى الشعوب، لكن الأحداث بعدها تتطور بشكل مؤسف وصولا إلى حرب أهلية بين الفصائل الفلسطينية المسلحة وبين الجيش الأردني ورغم أنه لم يكن راضيا عن بعض ممارسات قام بها منتسبون للثورة، إلا أنه يقع ضحية الفوضى العارمة التي أعقبت المأساة.

لَمْ أَكُنْ مِنْ جُنَاتِهَا عَلِمَ اللَّهُ

وَإِنِّي بِحَرْهَا الْيَوْمَ صَالٍ

يسجن أبو وائل، وتنتهى خدماته من الأمن العام، ويجرد من ألقابه العسكرية، ويحكم عليه بالإعدام مع آلاف آخرين، ثم يخفف الحكم إلى السجن المؤبد في سجن الجفر بأقصى الصحراء الأردنية، ثم يخرج في عفو ملكي عام بعد

نحو ثلاث سنوات قضاها في سجنه بالجفر.

خرج من السجن خالي الوفاض، ليس في يديه مال، ولا حرفة، ولا أفق.

ولكن الحل يأتي من عند الله.

كان للعشيرة في عمان جمعية استثمارية خيرية نشطة، وكانوا يقيمون مشروعا تجاريا لبيع المواد التموينية بالجملة في منطقة الوحدات، وسيختارون للعمل فيه أحمد محمود وابن عمه علي خليل، وسيقوم على تدريبهم خاله محمد حسن، وسيبقى في عمله هذا حتى يتقاعد منه وهو في أواسط السبعينيات من عمره ثم يحين اليوم الذي يلقي فيه ربه وقد جاوز الرابعة والثمانين من عمره في العام 2020 الذي كان عام وباء الكورونا.

يقف أحمد يوما في منطقة طبقة فحل من أعمال غور الأردن ينظر غربا مستذكرا قريته قائلاً:

- «كل أمنيته أن أعود وأدفن هناك».

وسينشد لاحقاً:

شيخ يدب ويتكي بعصاه
والعجز أنهكه وهـدّ قواه
سلبته أيدي النائبات نعيمه
فَقَدَ الديار وكلّ من يهواه
هجر الجنان وفي حشاه صباة
لنسيم موطنه وطيب هواه
هجر الجنان وكان شخصا يافعا
غض الإهاب ولما يحتفي بصباه
يا جنتي أنا ما تركتك طائعا
رغم العدو وما يكون أياه
فلأنت من بين القرايا كوكب
في الليلة الظلما يضيء سنائه
هذا فتاك وقد أضر بجسمه
طول البعاد وشر ما يلقيه
سكن المغاور والكهوف مشردا
يرعى النجوم مرددا: «أواه»



للتواصل مع الكاتب

* جوال: 0097455508643

* فيسبوك:

<https://www.facebook.com/profile.php?id100015659327337=>

* تويتر:

https://x.com/wasefff?t=kpkY5h4C5e64J7Ux_25nYQ&s=08



المحتويات

7	صاص فوق الراس
19	المحاكمة
25	احتلال مجلس
39	إلى عجور
45	احتلال بيت نثيف
49	مخيم العوجا
55	البحر الميت
59	مخيم العروب
67	فران، وعامل بناء
71	مجلس
79	البيت
91	الجلوة والصلح
95	مدرسة مجلس
103	مدرسة تل الصافي
105	خميس البيض
107	التعليلة
111	العيد
115	يافا
121	الأراضي
129	سواليف الحصيدة في جليا
137	شهر الأحزان
139	النكسة

